عباس محمود العقاد



عبقرية الإمام علي



الناشر
دار الكتاب العربي
بيروت - لبنان



عبقرية الامام علي

عبقرية الإمام علي

تأليف
عباس محمود العقاد

الناشر
دار الكتاب العربي
بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

تقدمة

في كلّ ناحية من نواحي النفوس الانسَانية مُلتقى بسيرة علي بن أبي طالب رِضوان الله عليه ..

لأن هذه السيرة تخاطبُ الانسانَ حَيثما اتجه اليه الخطابُ البليغ من سير الأبطال والعظماء ، وتثير فيه أقوى ما يثيره التاريخ البشريّ من ضروب العطف ومَواقع العبرة والتأملِ .

في سِيرة ابن أبي طالب مُلتقى بالعاطفة المشبوبَة والاحساس المتطلعّ إلى الرحمة والاكبار . لأنه الشّهيد أبو الشهداء ، يجري تاريخه وتاريخ أبنائِه في سلسلةٍ طويلة من مَصارع الجهاد والهزيمة ، ويتراءون للمتتبع من بعيد واحداً بعد واحد شيوخاً جللهم وَقار الشيب ثم جَللهم السَّيف الذي لا يَرحم ، أو فتياناً عُوجلوا وهم في نضرة العُمر يحالُ بينهم وبين متاع الحياة ، بل يُحَال بينهم أحياناً وبين الزّاد والماء ، وهُم على حِياض المنيّة جِياع ظِماء .. وأوشك الألمُ لِمصرعهم

أن يصبغ ظواهر الكون بصبغتهم وصبغة دمائهم ، حتى قال شاعرٌ فيلسوف كأبي العلاء لا يظن به التشيع بل ظُنت باسلامه الظنون :

وعلى الأفق من دماء الشهيدين بن علي ونجله شاهدان
فهما في أواخر الليل فجرا ن ، وفي أولياته شفقان

وهذه غاية من امتزاج العاطفة بتلك السيرة قلما تبلغها في سير الشهداء غاية ، وكثيراً ما تتعطشُ اليها سرائرُ الأمم في قصص الفداء التي عمرت بها تواريخ الأديان ..

وفي سيرة ابن أبي طالب ملتقى بالخيال حيثُ تحلق الشاعرية الانسانيةُ في الأجواء أو تغوص في الاغوار . فهو الشجاع الذي نزعت به الشاعربة الانسانية منزع الحقيقة ومنزع التخيل ، واشترك في تعظيمه شهودُ العيان وعشاق الأعاجيب ... ألم يحارب المردة في فلواتها ؟.. ألمْ يخلق له الرواة أندادًا من المناجزين المبارزين لم يخلقهم الله ؟.. ألم يستصغر عليه المحبون الغالبون في الحب أن يصرع من عرفنا من خصومه فأنشئوا له من الخصوم المغلوبين من لم يعرفهم ولم يعرفوه ؟ .. ألم يوشك من وصفوه ووصفوا وقعاته وفتكاته أن يلحقوه بأبطال الأساطير وهو أصدق الأبطال في أصدق مجال .

وتلتقي سيرته – عليه رضوان الله – بالفكر كما تلتقى بالخيال والعاطفة ، لأنه صاحب آراء في التصوف والشريعة والأخلاق سبقت جميع الآراء في الثقافة الاسلامية ، ولأنه أحجى الخلفاء الراشدين أن يعدّ من أصحاب المذاهب الحكيمة بين حكماء العصور ، ولأنه أوتي من الذكاء ما هو أشبه بذكاء الباحثين المنقبين منه بذكاء الساسة المتغلبين فهو الذكاء الذي تحسه في الفكرة والخاطرة قبل أن تحسّه في نتيجة العمل ومجرى الأمور .

وللذوق الأدبي – أو الذوق الفني – ملتقى بسيرته كملتقى الفكر والخيال والعاطفة ، لأنه رضوان الله عليه كان أديباً بليغاً له نهج من الأدب والبلاغة يقتدي بـه المقتدون ، وقسط من الذوق مطبوع يحمده المتذوقون ، وان تطاولت بينه وبينهم السنون . فهو الحكيم الأديب ، والخطيب المبين ، والمنشيء الذي يتصل انشاؤه بالعربية ما اتصلت آيات الناثرين والناظمين ..

وللنفس الانسانية نواحيها الكثيرة غير نواحي العطف والتخيّل والتفكير ، وتذوق الحس الجميل من التعبير .

فمن نواحيها الكثيرة ناحية لم تنقطع قط في زمن من الأزمان، وهي ناحية الخلاف بين الطبائع والأذهان ، أو ناحية الخصومة

الناشبة أبداً على رأي من الآراء ، أو حقٍّ من الحقوق أو وطن من الأوطان .

فقد يفتر العقل والذوق بعض حين ، وقد يفتر الخيال والعاطفة بعض حين ، ولكن الذي لم يفتر قط ولا نخاله يفتر في حين من الأحايين خصامُ العقول وجدلِ الألسنة واختلاف المختلفين وتشيع المتشيعين .

وان ها هنا للمجال الرغيب والملتقى القريب في سيرة هذا الامام الأوحد التي لا تشبهها سيرة في هذه الخاصة بين شتى الخواص ، وهو رضوان الله عليه قد قال في ذلك أوجز مقال حين قال :

« ليحبني أقوامٌ حتى يدخلوا النـــار في حبي ، ويبغضني أقوامٌ حتى يدخلوا النـار في بغضي » . . . أو حين قـال : « يهلك فيّ رجلان : محبٌّ مفرط بما ليس فيّ ومبغض يحمله شنآني عليّ أن يبهتني » .

وصدقَ الامامُ الكريم في غلوّ الطرفين من محبيه ومن مبغضيه . فقد بلغ من حب بعضهم اياه أن رفعوه الى مرتبة الآلهة المعبودين ، وبلغ من كراهة بعضهم اياه أن حكموا عليه بالمروق من الدين : هنا الروافض الغلاة يعبدونه وينهاهم عن عبادته فـــلا يطيعونه .. ويستتيبهم فيصرّون على الكفر أي اصرار ، ويأمرُ باحراقهم فيقولون

وهُم يُساقون الى الحفيرَة المُوقدة : أنه اللهُ وانهُ هو الذي يُعذّب بالنّار !..

وهناك الخوَارج الغُلاة يعلنون كُفره ويطلبونَ منه التوبة الى الله عن عصيانه . . ويسبُّونه على المَنابر كما سبَّه خصُومه الأمويون الذين خالفُوهم في العقيدَة ووافقوهُم على السِباب . .

ميْدان من ميَادين الملاَحاة لم يتسع قط مَيدان مُتسعه في تَواريخ الأبطالِ المعرَّضين للحب والبغضاء : يقولُ اناسٌ : إله . ويقول اناسٌ: كافرٌ مطرودٌ من رحمة الله ! ..

وناحية أخرى من نواحي النفسِ الكثيرةِ تلاقيها سيرةُ الامَام في أكثرَ من طريق : وتلك هي ناحية الشكوَى والتمرّد أو ناحية الشوق الى التجديد والاْصلاح .

فقد أصبح اسمُ عليٍّ عَلماً يلتف به كل مغصوب ، وصيحةً ينادي بها كل طالب انصاف ، وقامت ، باسمه الدول بَعد موته لأنه لم تقم له دولة في حياتِه . وجعل الغاضبونَ على كل مجتمع باغ ، وكل حكومة جائرة . يَلوذون بالدعوة العلوية كأنها الدعوة المرادفة لكلمة الاصلاح ، أو كأنها المنفس الذي يَستروح اليه مكظوم .. فمن نازعَ في رأي ، ففي اسم عليٍّ شفاءٌ لنوازع نفسه ، ومن ثارَ على ضيم ففي اسم عليٍّ حافز لثورته ومرضاة لغضبه ، ومنْ واجه التاريخ العربي بالعقل أو بالذّوق

أو بالخيال أو بالعاطفة فهناك مُلتقى بينه وبين عليّ في وجـــه من وُجوهه ، وعَلى حـــالة من حالاته . وتلك هي المزية التي انفردَ بها تاريخُ الامام بين تواريخ الأئمـة الخلفاء ، فاصبحت بينـه وبين قلوبِ الناسِ وشائج تخلقها الطبيعة الآدمية إن قصَّر في خلقهـا التاريـخُ والمؤرِخون .

وكل مُلتقى من هـذه الملتقيات يدع الكاتب في حـذر ما بعده من حذر ، لأن اشتباك العوامـل النفسية يزيدُ صعوبة الباحث عن نفس من النفوس ، ولا ينقصها أو يؤولُ بها الى البساطة والوضوح ، وكلمّا قلت هذه العوامل وانحصرَت في ناحيـــة من النواحي سهل الخلوص الى مقطع الحق فيها . فالبطلُ الذي يَلتقي بالفكر وحـدَه أسهلُ من البَطل الذي يَلتقي بالفكر والعاطفة ، وان هذا لأسهلُ مِن الذي يَلتقي بالفكر والعاطفة والخيال ، وكلّ أولئك أسهل مِمّن يَلتقي في ألفِ سنةٍ متواليةٍ بدخائلِ النفوُس جميعاً من طموح الى المثل الأعلى ، أو حرص على الملاحاة ، أو شغفٍ بالبلاغة أو رياضـةٍ على التقوى ، مزيداً على التخيل والشعور والتفكير .

لهذا نعلم غيرَ مترددين في عِلمنا ان واجبنا في « عبقريّة الامام » مرسوم الغاية والطريقِ ، وهو واجبُ التبسيط والقصد الى الخطة الوسطى ، وفي علمنا بهذا بعضُ التيسير ، وان لم يكن فيه كلُّ التيسير ،

نرجع « بعبقرية الامام » الى الحقيقة الوسطى .

نرجع من عشرين طريقاً الى بداية واحدة ، لأن الطريق الواحدة لا تؤدي اليها أقرب أداء . وحسبنا أننا عرفنا ضرورة الرجوع من كل هذه الطرق الى تلك البداية المقصودة فعلى بركة الله ..

عباس محمود العقاد

١

صِفَاته

المشهور عن عليّ كرم الله وجهه انه كان أول هاشمي من أبوين هاشميين .. فاجتمعت له خلاصة الصفات التي اشتهرت بها هذه الأسرة الكريمة وتقاربت سِماتها وملامحها في كثير من أعلامها المقدمين ، وهي في جملتها النبل والأيد والشجاعة والمروءة والذكاء ، عَدا المأثور في سماتها الجسدية التي تلاقت أو تقاربت في عدة من أولئكَ الأعلام .

فهوَ ابن أبي طالب عبدِ المطلب بن هاشم بن عبد مناف ، وأمه فاطمة بنت أسدِ بن هاشم بن عبد مناف .

وقيل ان اسمه الذي اختارتـه له أمه : حيدَرةَ باسم أبيها أسد ، والحيدرة هو الأسد .. ثم غيَّره أبوه فسماه عليًّا وبه عُرف واشتهر بعد ذلك .

وكانَ عليٌّ أصغرَ أبناء أبويه ، وأكبر منه جعفر وعقيل وطالب ،

وبين كلٍّ منهم وأخيه عشر سنين .

قيل ان عقيلا كان أحبَّ هؤلاء الاخوة الى أبيه ، فلما أصابَ القحْط قريشاً وأهابَ رسول الله عليه السلام بعمّيه حمزة والعباس أن يحْمِلوا ثقل أبي طالب في تلك الأزَمة جاءوه وسألوه أن يدفعَ اليهم ولده ليكفو أمرهم ، فقال : دَعُوا لي عقيلا وخذوا مَن شئتم . فأخذ العباس طالباً وأخذ حمزة جعفر واخذ النبيُّ عليـــه السلام علياً كما هو مشهور . فعوَّضه إيثار النبيّ بالحب عن ايثارِ أبيه ، ولكنه عرف هذا الايثار في طُفولته الأولى فكان سابقة باقية الاثر في نفسِه على ما يبدو من أطوار حَياته التالية ، وجاءَت لهذه السابقة لواحقها الكثيرة على توقع واستعدادٍ فتعوّد أن يفوته الحق والتفضيل وهو يدرجُ في صباه .

وربما صحَّ من أوصاف عليٍّ في طفولته انه كان طفلاً مبكر النماء سابقاً لأنداده في الفهم والقدرة ، لأنه أدرك في السادسة أو السابعة من عمره شيئاً من الدعوة النبوية التي يدق فهمها والتنبه لها على من كان في مثل هذه السن المبكرة . فكانت له مزايا التبكير في النماء كما كانت له أعباؤهُ ومتاعبهُ التي تلازم أكثر المبكرِّين ، ولا سيّما المولودينَ منهم في شيخوخة الآباء ..

ونشأ رضيَ الله عنه رجلاً مكـــينَ البنيان في الشباب والكهولة ، حافظاً لتكوينه المكين حتى ناهز الستين ..

قال واصفوه وهو في تمام الرجولة انه كان رضي الله عنه ربَعة أميل

الى القصر ، آدم – أي اسمر – شديد الادمـة ، أصلعَ مبيضّ الرأس واللحية طويلها ، ثقيلَ العينين في دعج وسعة ، حسن الوجه واضح البشاشة ، أغيد كأنما عنقـه ابريق فضة ، عريض المنكبين لهما مشاش كمشاش [1] السبع الضاري لا يتبين عضدُه من سَاعده قد أدمجت ادماجاً . وكان أبجرَ – أي كبير البطن – يميـل الى السمنة في غير افراط ، ضخم عضلة الساق مُستدقها ، ضخم عضلة الذراع دقيق مستدقها ،شثن الكفّين ، يتكفأ في مِشيته على نحو يقاربُ مِشية النبيّ ، ويقدم في الحرْب فيقدم مهرولاً لا يلوي على شيء .

وتدل أخبَاره – كما تـدل صِفاته – على قوةٍ جسديةٍ بالغةٍ في المكانةِ والصلابةِ على العوارضِ والآفات . فربما رفع الفارس بيده فجلد به الأرض غير جاهِد ولا حَافل ، ويمسكُ بذراع الرجل فكأنه أمسكَ بنفِسه فلا يستطيع أن يَتنفس ، واشتُهر عنه انه لم يُصارع أَحداً الا صَرعه ، ولم يُبارز أحـداً الا قَتله ، وقد يزحزحُ الحجرَ الضخم لا يزحزحه الا رجال ، ويحمل البـابَ الكبيرَ يعيي بقلبهِ الأشداء ، ويصيحُ الصيحة فتنخلعُ لها قلوبُ الشجعان .

ومن مكانة تركيبه رضي الله عنه انه كان لا يُبالي الحر والبرد ، ولا يحفلُ الطوارىء الجوية في صيف ولا شتاء ، فكان يلبس ثيابَ الصيف

---

١ – المشاش : رأس العظم .

في الشتاءِ وثياب الشتاءِ في الصيفِ ، وسئل في ذلكَ فقال : « ان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثَ اليّ وأنا أرمد العين يوم خيبرَ فقلت : يا رسول الله ، اني أرمد العين . فقال : اللهم اذهب عنه الحر والبرد ، فما وجدت حراً ولا برداً منذ يومئذٍ .. »

* * *

ولا يُفهم منْ هذا انه رضوان الله عليه كان معدوم الحس بالحر والبرد بالغاً ما بلغت بهما القساوة والايذاء . فقد كان يرعد للبرد اذا اشتد ولمْ يتخذ لهُ عدة من دِثار يقيه . قال هرون بن عنترة عن أبيه : دخلتُ على عليّ بالخورنق وهو فصلُ شتاءٍ وعليه خلق قطيفة وهو يرعد فيه . فقلتُ : يا أمير المؤمنين ، ان الله قد جعلَ لك ولأهلكَ في هذا المال نصيباً وأنت تفعل هذا بنفسك ؟ .. فقال والله ما أرزؤكم شيئاً ، وما هي إلا قطيفتي التي اخرجتها من المدينة .

فليسَ هو انعدام حس بالصيف والشتاءِ . انما هيَ مناعةُ قوية خصّت بها بنيته ، لم يُخصّ بها معظمُ الناس .

وكان الى قوته البالغة ،شجاعاً لا ينهضُ له أحد في ميدان مناجزة، فكان لجرأته على الموْت لا يهابُ قرناً من الأقران بالغاً ما بلغ من الصّولة ورهبة الصيت ، واجترأ وهو فتى ناشيء على عمرو بن ود فارس الجزيرة العربية الذي كانَ يقوم بالف رجلٍ عند أصحابه وعند أعدائه،

وكانت وقْعة الخندق فخرجَ عمرُو في الحديد ينادي جَيش المسْلمين : من يُبارز .. فصاحَ عَليّ : أنا لهُ يا نبيّ الله .. وبه اشفَاق عليه : انه عَمرو . اجلس . ثم عَاد عمرو ينادي : ألا رجُل يبرز ؟، وجعل يؤنبهُم قائلا : أين جنّتكم التي زعَمتم انكُم داخِلوها ان قُتلتم ؟ .. أفلاَ تبرزُون اليّ رجلا ؟.. فقام عليّ مرة بعد مرة وهو يقول : أنا له يا رسُول الله ، ورسولُ الله يقولُ له مرة بعد مرة : اجلس . انه عمرو ، وهو يُجيبه: وان كان عُمرا .. حتى أذنَ له فمشي اليه فرحاً بهذا الاذن الممنوع كأنه الاذن بالخلاص .. ثم نظر إليه عمرو فاستصغره وأنفَ أن يناجزَه وأقبلَ يسأله : من أنت ؟.. قال ولم يزد : أنا عليّ . قال : ابن عبد مَناف ؟.. قال: أبن أبي طالب . فاقبل عمرو عليه يقول : يا ابنَ أخي .. مِنْ أعمامك منْ هو أسنّ ، واني أكره أن اهريق دمكَ ، فقال له علي : ولكنيّ واللهلا أكره أن اهريق دمك . فغضبَ عمرو وأهوَى إليه بسيف كان كما قال واصفوه كأنه شعلة نار ،واستقبل عليٌ الضربة بدرقته فقدّها السيف وأصابَ رأسه ، ثم ضربَه عليٌ على حبل عاتقه فسقط ونهض ، وسقط ونهض ، وثارَ الغبار ، فما انجلى إلا عن عمرو صريعاً وعليّ يجار بالتكبير .

وكأنما كانت شجاعته هذه القضاء الذي لا يؤسَى على مصابه لأنه أحجى المصائب ، وأقلها مَعابة الا يُدفع . فكانت أخت عمر بن ود

تقول على سبيل التأسّي بعد موته :

لو كان قاتلُ عمرو غير قاتله
بكيتَه أبــداً ما دُمت في الأبـدِ
لكنّ قاتِـله مَنْ لاَ نظِـير لَـه
وكَان يُدعى أبُوه بيضـةَ البَلدِ

***

فكانت شجاعته من الشجاعات النادِرة التي يُشرّف بها يُصيب بها ومن يُصاب ..

ويزيدها تشريفاً انهـــا ازدانت بأجملِ الصفات التي تزين شجاعة الشُجعان الأقويَاء .. فلا يعرفُ الناس حليةً للشجَاعة أجمل مِنْ تلكَ الصفاتِ التي طبعَ عليها عليّ بغيرِ كلفة ولا مجَاهدة رأي . وهي التورّع عن البَغي ، والمرُوءة مع الخصم قَوياً أو ضعيفاً على السوّاء ، وسَلامة الصدْر من الضغَن على العدو بعد الفرَاغ من القتال .

فمن تورعه عن البغي ،مع قوته البالغة وشجاعَته النادرَة ،انه لمْيبدأ أحداً قط بقتالِ وله مندُوحة عنه ، وكان يقول لابنه الحَسنَ : « لا تُدْعونَ الى مبارزة . فان دعيت اليها فاجب . فان الداعِي اليهـــا باغٍ والباغي مصروع » ..

وعلم ان جنودَ الخوارج يفارقُون عسكره ليحاربوه ، وقيل له انهم خارجون عليك فبادِرهم قبل أن يبادِرُوك ، فقال : « لا أقاتلهم حتى يُقاتلوني . وسيفْعَلون ! . »

وكذلك فعل قبل وَقْعةِ الَجمل ، وقبل وقعةِ صِفّين ، وقبل كل وقعة صغرت أو كبرت ووضحَ فيها عداءُ العدو أو غمُض : يدعوهم الى السلم وينهيَ رجاله عن المباداْة بالشرّ ، فما رفعَ يده بالسيفِ قط الّا وقد بَسطها قبل ذلك للسّلام .

كان يعظ قوماً فبهرت عظته بعض الخوارِج الذين يكفّرونه فصاح معجَباً اعجابَ الكاره الذي لا يملك بغضه ولا اعجابه : قاتلَه الله كافراً ما أفقَهه . فوثب أتباعه ليقتلوه . فنهاهم عنه ، وهو يقول : انما هو سبٌّ بسبٌّ أو عفوٌ عن ذنب .

وقد رأينا انه كان يقــول لعمرو بن ود : اني لا أكرهُ أن اهريق دمك .. ولكنه على هذا لم يرغب في اهراق دمـه الا بعد ياس من اسلامه ومن تركه حرب المسلمين .. فعرض عليه أن يكفّ عن القتال فانف ، وقال : اذن تتحـدث العربُ بفراري ، وناشده : يا عمرو . انك كنت تعاهد قومك إلا يدعوك رجل من قريش الى خلتـين إلا أخذت منه احداهما . قال : أجلْ . قال : فاني أدعوك الى الاسلام أو الى النزال . قال : ولِمَ يا ابن اخي ؟.. فوالله ما أحب أن أقتلك .. فلم يكن له بد بعد ذلك من احدى اثنتين : أن يَقتله أو أن يُقتل على يديه .

وعلى ما كان بينه وبين مُعاوية وجنوده من اللدد في العـداء لم يكن يناز لهم ولا يأخذ من ثاراته وثارات أصحابه عندهم إلا بمقدار ما استحقوه في موقف الساعة : فأتفق في يوم صفين أن خرجَ من أصحاب مُعاويـة رجل يسمى كريز بن الصباح الحميري فصاح بين الصفين : من يبارز ؟.. فخرج إليه رجل من أصحاب علي فقتله ووقف عليـــه ونادى : مَنْ يُبارز ؟ فخرج اليه آخر فقتله وألقاه على الأوّل ، ثم نادَى : من يُبارز ؟. فخرج اليه الثالثُ فصنعَ به صنيعه بصاحبهِ ، ثم نادَى رابعة : مَن يُبارز ؟. فأحجم الناسُ ورَجع مَن كانَ في الصفّ الأوّل الى الصفِ الذي يليه ، وخاف عليّ أن يَشيع الرّعب بين صُفوفه فخرجَ الى ذلك الرجل المدّل بشجاعته وبأسه فصَرعه ثم نادَى بندائه حتى أتم ثلاثة صنعَ بهم صنِيعه بأصحابه ، ثم قال مسمِعاً الصفوف : يا أيها الناس. ان الله عزّ وجلّ يقول : « الشهرُ الحرامِ بالشهر الحرامِ والحرمات قصاص ، ولو لم تبدءُونا ما بدأناكم » ثم رجع الى مكانه ٠

أما مروءتُه في هذا الباب فكانت أندرَ بين ذوي المروءة من شجاعَته بين الشُجعان ٠ فأبَى عليَ جنده وهم ناقمون أن يقتلُوا مُدبراً أو يجهزوا على جريحٍ أو يكشِفوا ستراً أو يأخذوا مالاً . وصلّى في وقعةِ الجمل على القتلى من أصحابه ومن أعدائه على السوَاء ، وظفرَ بعبد اللّه بن الزبير ومروان بن الحكم وسعيد بن العـــاص وهم ألد أعدائه المؤلبين عليه فعفا عنهـــم ولم يتعقبهم بسوء ، وظفر بعمرو بن العاص وهو أخطر عليه من جيش ذي عدة فاعرض عنه وتركه ينجو بحياته حين كشفَ عن

سوأته اتقاء لضربته .. وحال جندُ معاوية بينه وبين الماء في معركة وهم يقولون له : ولا قطرة حتى تموت عطشاً .. فلما حمل عليهم وأجلاهم عنه سوّغ لهم أن يشربوا منه كما يشرب جنده ، وزار السيدة عائشة بعد وقعة الجمل فصاحت به صفية أم طلحة الطلحات: ايتمَ اللهُ منك أولادك كما أيتمت أولادي. فلم يرد عليها شيئاً ، ثم خرج فأعادت عليه ما استقبلته به فسكت ولم يرد عليها . قال رجل أغضبه مقالها : يا أمير المؤمنين . أتسكت عن هذه المرأة وهي تقول ما تسمع ؟.. فانتهره وهو يقول: ويحك ؟.. انا أمرنا أن نكفّ عن النساء وهنّ مشركات أفلا نكف عنهن وهن مُسلمات ؟.. وانه لفي طريقه اذ أخبره بعض أتباعه عن رجلين ينالان من عائشة فأمر بجلدهما مائة جلدة . ثم ودّع السيدة عائشة أكرم وداع وسار في ركابها أميالاً وأرسل معها من يخدمها ويخفّ بها . قيل انه أرسل معها عشرين امرأة من نساء عبد القيس عمّمهن بالعمائم وقلدهنُ السيوف .. فلما كانت ببعض الطريق ذكرته بما لا يجوزُ أن يذكر به وتأففتْ وقالت: هتكَ ستري برجاله وجنده الذينَ وكلهم بي.. فلمّا وصلتْ الى المدينة ألقىَ النساء عمائمهن وقلنْ لها : انما نحنُ نسوة .

وكانت هذه المروءة سنّته مع خصومه ، من استحقّ منهم الكرامة ومن لمْ يستحقها ، ومنْ كانَ في حرمة عائشة رضي الله عنها ومن لم تكُن له قط حرمة ، وهي أندرُ مروءة عُرفت من مُقاتل في وغر القتال ..

وتعدلها في النُبل والنُدرة سَلامة صَدره من الضغن على أعدَى الناس لهُ وأضرَّهم به وأشهرَهم بالضغن عليه . فنهى أهلهُ وصحبهُ أن يمثّلوا بقاتِله وأن يقتلوا أحداً غيره ، ورثى طلحةَ الذي خلع بيعته وجمعَ الجموعَ لحربه رثاء محزونٍ يفيض كلامه بالألم والمودّة ، وأوصى أتباعه ألا يُقاتلوا الخوارج الذين شقوا صُفوفه وافسدُوا عليه أمره وكانوا شرّاً عليه مِن معاوية وجُنده ، لأنه رآهم مُخلصين وإن كانوا مُخطئين وعلى خطئهم مصرّين ..

* * *

وتقترن بالشجَاعة ـ ولاسيّما شجاعةَ الفرسان المقاتِلين بأيديهم ـ صفة لازمَةٌ لها متمّمة لعملها قلما تنفصِل عنها وكأنها والشَجاعة أشبهُ شيء بالنضح للماء ، أو بالاشعاع للنُور ، فلا تكون شجاعة الفروسيّة الا كانت معها تلك الصفَة التي نُشير اليهـا ، وهي صِفة « الثقة » أو « الاعتزاز » أو الادّراع بالهيبة والتهويل على الخصُوم ولاسيّما في مواقِف النِزال .

وقد يُسميها بعضُ الناس زهواً وليست هيَ به ولا هيَ من مَعدنه وسمته ، وان شابَهته في بعضِ الملامح والألوان .

فالزهوُ المذمومُ فضولٌ لا لزومَ له ولا خيرَ فيه ، وهو لونٌ خادعٌ قد يوجدُ مع الضّعف كما يوجدُ مع القوّة ، وقد يبدو على الجبان كما يبدُو على الشجَاع .

أما هذا الاعتزازُ الذي نشيرُ اليه ، أو هـذهِ الثِقة التي تظهرُ لنا في صورة الاعتزازِ ، فهي جزءٌ من شجاعةِ الفارسِ المقاتل لا يستغني عنـه ولا يزال متصلاً بعمله في مواجهه خصومهِ ، وهوعرض للقوة يساعـد الفارسَ في ارهاب عدوّه واضعاف عزيمـة منْ يتصدى لحربه .. مَثَلهُ هنا كمَثلِ العروض التي تعمـــدُ إليها الجيُوش لأعلان بأسِها وتخويف الأعدَاء من الاستخفاف بها والهجومِ عليها. فهو كالشجاعة أداةٌ ضرورية من أدوات القتالِ لا تنفصلُ عنها ، وليس كل ما فيها ضرباً مِنَ الخيلاء يُرضي به الشجاع غروره ويتيهُ به في غير حاجةٍ الى التيه .

ولهذا تحمّس الناس للفخر العسكري من قديم الزمن وعهده وتحدثوا به وتناقلوُه ، فسمحوا للفارس ــ بل لعلهم أوجبوا عليه ــ أن يروغ مِنَ خصمه بالفخر المرعب اذْ يتقدّم لنزالِه . وأن يلاقيه وهو ينشدُ الأشعارُ في ذكر وقعاته والتهْويل بضرباته والاشادة بغزواتـــه ، وعلمُوا انهم ــ وقد احتاجوا الى شجاعتــــه ــ محتاُجون كذلك الى فخره وحماسته وايقَاع الرعب في جنان قرنِه ، فشاعَت قصائد الفَخر والحماسة كما شاعت قصائد الحبّ والمناَجاة ، وهي أحب القصَائد الى القلو ب .

***

ومن تأُصل هذه العادة في الطباع أنها تُشاهد في جميع الأحياء فِطرةَ وارتجالا بغير اصطناع ولا تعمد . فلا نرى حيًّا من الأحياء الناطِقة أو العجماء ينـازلُ قرناً له الا حاوَل مـا استطاع أن يهوّله بتكبيرِ حجمه

واستطالة قدره وائتمار نظره وتنفيش ريشه أو شعره ، ويقفُ الانسان مثل هذا الموقف فيطيلُ قامته ويبرزُ صدرَه ويدق بيده عليه ويقول بلسان حاله ما يقال باللسان ، فاذا هو الفخرُ والحماسة واذا هو عنوان الثقة والاقدام .

هذه الصفة لازمة لفرسان الميدان ، ولاسيّما فرسان العصور الأولى الذين يقفون للقتال وجهاً لوجه ، وينظرُ أحدُهم الى قرنه وهو يهجم عليـــه .

وكانت هذه الصفة من صفات عليّ رضي الله عنه ، يفهَمها من يريد أن يفهمَ ولا يضيقُ صدراً بفضله ، وينكرها من ينفسُ عليه فيسميها الزهو أو يسمّيها الجفوَة والخيلاء . قالَ له قيسُ بن سَعد بعد عزله من ولاية مصر : انك والله ما علمت لتنظر الخيلاء .. ومرّ الزبير بن العوّام مع رسول الله في بني غنم ، فرأى رسولَ الله علياً على مقربةٍ منه فضحكَ له وضحك عليّ يحييه . فقال الزبير : لا يدَع ابن ابي طالب زهوه . قال رسول الله : انه ليسَ به زهو ، ولَتقاتلنه وأنتَ له ظالِم .

فليسَ هو بالزهو المكروه ، ولكنها الشجاعة التي يمتلىءُ بها الشجاع والثقة التي تتراءى مكشوفة في صراحتها واستقامتها ، لأن صاحبها لم يتكلّف مُداراتها ولم يحس انهُ يحتاجُ الى مدارَاتها ولأنه لا يقصدها ولا يتعمّد ابداءها ..

* * *

وقد كان مَدار هذا الخُلق في ابن أبي طالب على ثقــة أصيلة فيه لمْ تفارقه منذ حبَا ودَرج . وقبل أن يبلغ مبلغ الرجال . فما منعته الطفولة الباكرة يوماً أن يعلمَ أنهُ شيء في هذة الدنيا وانه قوة لهَا جوَار يَركن اليه المستجير . ولقـــد كانَ فى العاشرة أو نحوَها يومَ أحاط القرُوم القرشيّو ن بالنبيّ عليـه السلام ينذرُونه وينكرُونه وهو يقلِّب عينهُ في وجوهِهم ويسألُ عن النصِير ولا نصِير ...لو كان بعليّ أن يرتاعَ في مَقام نجدةٍ أو مقـــام عزيمةٍ لارتاع يومئذٍ بين أولئك الشيُوخ الذين رفعتهم الوجاهـة ورفعتهم آدابُ القبيلة البدويّة الى مَقـام الخشية والخشُوع . ولكنـه كان عليًا في تلك السن البا كرة كما كان عليًا وهُو في الخمسين أو الستين . فما تردَّد وهُم صامِتون مُستهزئون أن يصيحَ صيحة الواثق الغضوب : أنا نصيرُك . فضحِكوا منه ضحك الجهـلِ والاستكبار ، وعلِم القدرُ وحده في تلكَ اللحظَة ان تاييدَ ذلك الغلام أعظمُ وأقوم من حرب أولئك القروم .

عليٌّ هذا هو الذي نَـام في فراش النبيّ ليلةَ الهجرة ، وقد عَلِم مـا تأتمرُ به مكة كلها مِنْ قتل الراقِد على ذلك الفِراش .

وعليٌّ هذا هو الذي تصدى لعمرو بن ود مرة بعد مرة والنبي يُجلِسه ويحذره العاقِبة التي حذرها فرسانُ العرَب مِنْ غير تحذير ، يقول النبيّ : اجلس . انه عمرو . فيقول : وإن كان عمراً .. كانه لا يعرف مَنْ يخاف

ولا يعرف كيف يَخاف، ولا يعرف إلا الشجاعة التي هو مَمتلىء ِبها واثقٌ فيها في غير كلفةٍ ولا اكتراث •

وتمكنت هذه الثّقة فيـــه لطول ِ مراس ِ الفروسية التي هي كمَا أسلفنا جزء منها وأداة من أدواتها .

وزادها تمكيناً حسَدَ الحاسدِين ولجاجة المنكرِين ، و كلاهُما خليق أن يعتصِم المرءُ منه بثقةٍ لا تتخذل ، وأنفةٍ لا تلين . فمنْ شواهدِ هذه الثقة بنفسه انه حملها مِنْ ميدان ِ الشجاعة الى ميدَان العلم والرأي حين كان يقول : « اسألُوني قبل أن تفقدُوني ، فوالذي نفسي بيده لا تسألُوني في شيء فيا بينكم وبَين السَّاعـــة ، ولا عنْ فئة تهدي مائـة وتضل مائة الا أنبأتكم بناعِقها وقائِدها وسائِقها ، ومناخ ركابها ومَحط رِحالها » .

ومن شواهِدها انه كان يقول والخارُجون عليه يرجمونه بالمروق: « ما أعِرف أحداً من هـذه الأمة عَبدَ الله بعد نبينّا غيري ، عبدت الله قبل ان يعبده أحدٌ مِن هذه الأمة تِسع سنين » .

وزادَه اتهامُ مَن حوله معتصما بالثقة بنفسهِ ،فلمّا عتبَ عليه خِصماه طَلحة والزبير أنه تركَ مشورَتها قال : « نظرتُ الى كتـابِ الله وما وَضع لنا وأمرَنا بالحكم به فاتبعته . وما استنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلم فاقتديتُه . فلم أحتج في ذلك الى رأيكما ولا رأي غيركما ، ولا وقـع حكم

جهلتـه فاستشيرُكما واخواني المسلمين ، ولو كان ذلكَ لمْ أرغب عنكما ولا عن غيركما . »

وأبدى هذه الخليقة مِنه انه كان رضي اللهُ عنه لا يتكلفُ ولا يحتال على أن يتألف . بل كانَ يقولُ : « شرّ الاخوان مَن تكلف له » ويقول: « اذا احتشَم المؤمنُ أخاه فقد فارَقه »، فكان الذين ينتظرُون منه الاصطِناع والارضَاء يخطئون ما انتظرُوه ، ولاسيّما اذا هم انتظروه من أرزاقِ رعاياه وحقوقِهم التي اؤتِمَن اليها . فيحسبُون انها الجفوة البيّنة وانه الزهو المقصُود وما هو بهذا ولا بتلك . انما هي شجاعةُ الفارس بلوازمها التي لا تنفصلُ منها ، وانما هوَ امتعاض المغموُط المسيء ظناً بمن حوله يتراءى على سجيّته في غير مدارَاةٍ ولا رياء . فما كان يتكلف اظهار تلك الخلائق زهواً كما يسمونه أو جفوةً كما يحسبونها ، بل كان قصاراه ألا يتكلفّ الاخفاء ، فإذا ألتفتَ قاصداً الى ما في نفسه فهو لايقصد العجبَ ولا يرَضاه ، بل ينهى عنه ويشتد في اجتنابه ، ويُوصي مَنْ أحبَ : « اياك والاعجابَ بنفسك والثقةَ بما يعجبك منها » ... « واعلم ان الاعجابَ ضد الصواب ، وآفة الألباب » .

نعم ، كان ملاَك الأمر في أخلاق عليّ عليه السلام انهُ كانَ لا يتكلفُ اظهارَ شيء ولا يتكلف اخفاء شيء ولا يقبلُ التكلف حتىّ من مادحيه ، فربما أفرط الرُجل في الثناء عليه وهو متّهم عِنده فلا يدعه

حتى يعلن له طويّته ويقول له : « أنا دون ما تقول وفوقَ مَـــا في نفسك » .

***

وكانت قِلة التكلف هذه توافقُ منه خليقَته الكبرَى مِنَ الشجاعَة والبأس والامتلاء بالثقة والمنَعة . وكانت تسلك معه مَسلك الحقيقةِ والمجاز على السواء . كأنه يعني ما يصنع وهوَ لا يعنيه ، وانمـــا يجيء مِنه على البديهةِ كما تجيء الأشياءُ مِنْ معادنهـــا : كان مثلاً يخرجُ الى مبارزيه حاسرَ الرأس ومبارزُوه مقنَّعُون بالحديد . أفعجيبٌ منه أن يخرج اليهم حاسرَ النفس وهم مقنّعون بالحيلةِ والرياء ؟ وكان يُغفل الخضاب أحياناً ويرسل الشيبَ ناصعاً وهو لا يحرم خضابه في غيرِ ذلك منَ الأحيان . أفعجيبٌ منه ، مع هذا ، أن يقلّ اكتراثه لكلّ خضاب ساتراً ما سَتر ، أو كاشفاً ما كشف ، مِن رأي وخليقة ؟

بل كانت قلة التكلف هذه توافقُ منه خليقة أخرى كالشجاعة في قوتِها ورسوخهـا .. أو هيَ قريبة للشجاعـة في نفس الفارس النبيلِ وقلما تفارقُها ، ونعني بها خليقة الصّدق الصُراح الذي يجترىء به الرجل علىَ الضرّ والبلاء كما يجترىء به على المنفعة والنّعماء . فما استطاعَ أحدٌ قط أن يُحصي عليه كلمةً خالفَ فيها الحقّ الصراح في سلمه وحربه ، وبين صحبه أو بين أعدائِه ، ولعله كان أحوجَ الى المصانعةِ بين النصرَاء

مما كان بين الأعداء ، لأنهم أرهقوه باللجاجة وأعنتوه بالخلاف . فما عدا معهم قولَ الصدق في شدة ولا رخاء ، حتى قالَ فيه أقربُ الناس إليه : إنه رجلٌ يعرف مِنَ الحرب شجاعتها ولكنه لا يعرف خِدعتها . وكان أبداً عند قوله «علامةُ الايمان أن تؤثر الصِّدق حيث يضرُّك، على الكذب حيث ينفعك ، وألاّ يكون في حديثك فضل على عِلمِك ، وأن تتقي الله في حديثِ غيرك» ..

* * *

وصدقَ في تقواه وايمانه كما صدقَ في عمل يمينه ومَقالة لسانه . فلم يُعرف أحد من الخلفاء أزهد منه في لذة دنيا أو سيب دولة ، وكان وهو أميرٌ للمؤمنين يأكلُ الشعير وتطحنه امرأته بيديها ، وكان يختم على الجراب الذي فيه دقيقُ الشعير فيقول : « لا أحبُّ أن يدخلَ بطني ما لا أعلم » .. قال عمر بن عبد العزيز وهو من أسرة أميّة التي تبغضُ عليّا وتخلق له السيئات وتخفي ما توافر له من الحسنات : « أزهدُ الناس في الدنيا عليّ بن أبي طالب ». وقال سفيان : ان عليّا لم يبن آجرة على آجرة ولا لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة » وقد أبى أن ينزل القصرَ الأبيض بالكوفة ايثاراً للخصاص التي يسكنها الفقراء . وربما باعَ سيفه ليشتري بثمنه الكساء والطعام . وروى النضر بن منصور عن عُقبة ابن عَلقمة قال : « دخلتُ على عليٍّ عليه السلام فاذا بين يديه لبنٌ حامض آذتني

حموضته وكسر يابسة . فقلت : يا أمير المؤمنين ، أتأكلُ مثل هـذا ؟ فقال لي : يا أبا الجنوب ، كان رسولُ الله يأكلُ أيبسَ من هذا ويلبس أخشنَ من هذا ــ وأشار الى ثيابه ــ فإن لم آخذ بما أخـذَ به خفتُ ألا ألحق به » ..

ومن هذا الزهد الشديد كان عليّ رضي الله عنه أبعدَ الناس من كزازة طبع وضيق حظيرة وجفاء عشرة ، بل كانت فيه سماحةٌ يتبسط فيها حتى يقال دُعابة ، ورويَ عن عُمر بن الخطاب رضيَ الله عنه انـه قال له : « لله أبوك لولا دُعَابة فيك » وانه قال لمن سالوه في الاستخلاف : « ما أظن الا أن يلي أحد هذين الرجلين : عليّ أو عثمان . فان وليَ عثمان فرجلٌ فيه لين ، وان ولي عليّ ففيه دُعابة ، وأحرَ بـه أن يحمِلَهم على الطريق » .

وأغرق ابن العاص في وصف الدُعابة فسماها « دعابة شديدة » وطفق يُردّدها بين أهل الشام ليقدحَ بها في صلاح الامام للخلافة ، وانما نقولُ ان أبن العاص أغرقَ في هذا الوصف ، وان الدُعابة المعيبة لم تكن قط من صفاته ، لأن تاريخَ علي وأقواله ونوادره مـع صحْبه وأعدائه محفوظة لدينا لا نرى فيهـا دليلاً على خلق الدعابَة فضلًا عن الدليل على الافراط فيه . فان كان لهذا الوصف أثر أجاز لعمر بن الخطاب أن يذكره فربما كان مرجعُ ذلك ان عليّا خلا من الشغل الشاغل سنينَ عـدة ، فاعفاه

الشّغل الشاغل من صرامته وأسلمه حيناً الى سماحته وأحاديث صحبه ومريديه فحُسِبت هذه من الدعابةِ البريئة ثم بَالغ فيها المبالغُون، ولم يُثبتوها بقصة واحدة أو شاردةٍ واحدة تجيزُ لهم ما تقوّلوه .

***

وقد كانت للامام صفاتٌ ومزايا فكرية تناصي المشهورَ المتفق عليه مِن صفاتهِ النفسية ومزاياهُ الخلقية. فاتفق خصُومه وأنصارُه على بلاغته، واتفقُوا على علمه وفِطنته ، وتفرّقوا فيما عدا ذلك من رأيهِ في علاج الأمور ودهائه في سياَسةِ الرجال .

والحق الذي لا مراء فيه انه كان على نصيبٍ من الفطنة النافذة لا ينكره منصف ، وانه أشارَ على عُمر وعثمان أحسنَ المشورة في مُشكلات الحكم والقضاء ، وانه كان أشبه الخلفاء بالباحثين والمنقبين أصحاب الحكمة ومذاهب التفكير وعنه أخذ الحكماء الذين شرّعوا علمَ الكلام قبل أن يتطرق إليه علم فارس أو ِعلم يونان .. وكان يفهمُ أخلاق الناس فهمَ العالم المراقب لخفايا الصدور ويشرحها في عظاته وخطبه شرح الأديب اللبيب ..

الى هنا متفقٌ عليه لا يَكثرُ فيه الخلاف ، ثم يفترقُ الناس في رأيه رأيين وان لم يكونُوا مِنَ الشانئين المتحزبين ، فيقولُ أناس انه كانَ على

قسط وافرٍ من الفهْمِ والمشورة ، ولكنهُ عند العمل لا يَرى ما تقضي به الساعة الحازبة ولا ينتَفِع بما يراه • ويقول أناسٌ بل هو الاضطِرَار والتحرّج يقيّدانه ولا يقيّدان أعداءه وانهُم لَدُونه في الفِطنة والسّداد • وهو رَضي الله عنه قد اعتذَر لنفسه بمشابه من هذا العُذر حين قال : « والله ما مُعاوية بادهى منيّ ، ولكنه يغدرُ ويفجر ، ولولا كراهية الغدرِ لكنتُ من أدهى الناس » •

أما مقطع الرأي بين الرأيين فنرجُو أن نفصّله في مواضِعه من الفصول التالية مشفوعاً بمناسباته، ولكننا لا نستطيعُ أن نجزم هنا بحقيقتين تُجملان ما نبسطه في مواضعه من الكتاب ، ولا نحسبهما تتسعان لجدال طويل ، وهما ان أحداً لم يُثبت قط ان العمل بالآراء الأخرى كان أجدى وأنجع في فض المشكلات منَ العمل برأي الامَام ، وان أحداً لم يُثبت قط أن خصوم الأمام كانوا يصرّفون الأمور خيراً من تصريفه ، لو وُضعوا في موضعه واصطلحت عليهم المتاعِب التي اصطلحت عليه . وكلتا الحقيقتين حَرية أن تضبط لسانَ الميزان قبل أن يميلَ فيغلو به الميل هنا أو هناك .

* * *

هذه صفاتٌ تنتظم في نسق موصول : رجلٌ شجاعٌ لأنه قوي ، وصادق لأنه شجاع ، وزاهدٌ مستقيم لأنه صادق ، ومثار للخلاف لأن

الصدق لا يدورُ بصاحبه مع الرضا والسخط والقبول والنفور، واصدق الشهادات لهذا الرجل الصادق ان الناس قد أثبتوا له في حياته أجمل صفاته المثلى، فلم يختلفُوا على شيء منها الا الذي اصطدمَ بالمطامع وتفرقت حوله الشبُهات، وما من رجلٍ تتعسف المطامع أسبابَ الطعنِ فيه ثم تنفذ منه الى صميم .





٢

مفتاح شخصيته

« آداب الفروسية » هيَ مفتاح هذه الشخصّية النبيلة الذي يفض منها كل مُغلق ويفسّر منها كل ما احتاجَ الى تفسير .

وآدابُ الفروسية هيَ تلك الآداب التي نلخصُّها في كلمةٍ واحـــدةً وهي النخوة ..

وقد كانتِ النخوةُ طبعاً في عليٍّ فُطرَ عليـــه ، وأدباً من آداب الأسرة الهاشمية نشأ فيـه ، وعادةً من عادات « الفروسية » العملية التي يتعودُها كل فارس وشجاع متغلب على الأقران ، وان لم يُطبَع عليها وينشأ في حجرها . لأن للغلبة في الشُّجاع أنفة تأبىَ عليه أن يسفَّ الى ما يُخجله ويُشينه ، ولا تزال به حتى تعلمه النخوة تعلماً ، وتمنعـه أن يعمل في السر ما يزري به في العلانية .

وهكذا كان علي رضي الله عنه في جميع أحواله وأعماله : بلغت به

نخوةُ الفروسية غايتها المثلىَ ، ولا سيا في مُعاملة الضعفـــاء من الرجال والنساء . فلم ينسَ الشرف قط ليغتنم الفرَصة ، ولم يُساوره الريب قط في الشرف ، والحق انهما قائمـان دائمان كانهما مودعان في طبائع الأشياء . فاذا صنعَ ما وجبَ عليه فلينسَ منْ شاءوا ما وجبَ عليهم، وان أفادوا كثيراً وباءَ هو بالخسار ..

أصابَ المقتلَ من عدوّه مرات فلم يهتبل الفرصةَ السانحة بين يديه، لأنه أرادَ أن يغلبَ عدوه غلبة الرجل الشجاع الشريف ، ولم يُرد أن يغلبه أو يَقتصّ منه كيفما كان سبيل الغلب والقصاص ..

قال بعضُ منشهدوا معركة صفّين : لما قَدِمنا على مُعاوية وأهل الشام بصفين وجدناهُم قد نَزلوا منزلاً اختارُوه مستوياً بساطاً واسعاً وأخذوا الشريعة – أي موردَ الماء – فهيَ في أيديهم . وقد أجمعُوا على أن يمنعُونا الماء . ففزعنا الى أميرِ المؤمنين فخبرّناه بذلك فدعا صعصعةَ بن صوحان فقال له : إئتِ معاوية وقل له انا سِرنا مَسيرنا هذا اليكم ونحن نكرهُ قتالكم قبل الاعذارِ اليكم ، وانك قدمتَ الينـا خيلك ورجلك فقاتلتنا قبل أن نقاتلك وبَدأتنا ، ونحنُ من رأينـــا الكفّ عنك حتى ندعوك ونحتجّ عليك ، وهذه أخرى قد فعلتمُوها اذ حُلتم بين الناس وبين الماء . والناس غير مُنتهين أو يشربوا فابعث الى أصحابِك فليخلوا بين النـاس وبين الماء ويكفوا حتى ننظرَ فيما بيننـا وبينكُم وفيما قدِمنا له وقدِمتم لـه . . »

ثم قال راوي الخبر ما معناه أن معاوية سال أصحابه فأشاروا عليه أن يحول بين علي وبين المورد غير حافل بدعوته الى السلم ولا بدعوته الى المفاوضة في أمر الخلاف ، فأنفذ معاوية مدداً الى حراس المورد يحمونه ويصدون من يقترب منه ، ثم كان بين العسكرين تراشق بالنبل فطعن بالرماح فضرب بالسيوف حتى اقتحم أصحاب علي طريق الماء وملكوه.

وهنا الفرصة الكبرى لو شاء علي أن يهتبلها ، وأن يغلب أعداءه بالظمأ كما أرادوا أن يغلبوه به قبيل ساعة .. وقد جاء أصحابه يقولون : والله لا نسقيهموه . فكأنما كان هو سفير معاوية وجنده إليهم يتشفع لهم ويستلين قلوبهم من أجلهم . وصاح بهم : « خذوا من الماء حاجتكم وارجعوا الى عسكركم وخلوا عنهم ، فإن الله عز وجل قد نصركم عليهم بظلمهم وبغيهم » .

ولاحت له فرصة قبل هذه الفرصة في حرب أهل البصرة ، فأبى أن يهتبلها وأغضب أعوانه انصافاً لأعدائه ، لأنه نهاهم أن يسلبوا المال ويستبيحوا السبي وهو في رأيهم حلال . قالوا : أتراه يحل لنا دماءهم ويحرم علينا أموالهم ؟ .. فقال : « انما القوم أمثالكم ، من صفح عنا فهو منا ونحن منه، ومن لج حتى يصاب فقتاله مني على الصدر والنحر » وسن لهم سنة الفروسية أو سنة النخوة حين أوصاهم ألا يقتلوا مدبراً ولا يجهزوا على جريح ولا يكشفوا ستراً ولا يمدوا يداً الى مال .

ومن الفرص التي أبت عليه النخوة أن يهتبلها فرصة عمرو بن العاص

وهو ملقى على الأرض مكشوف السوأة لا يبالي أن يدفع عنه الموت بما حضره من وقاء . فصدفَ بوجههِ عنه آنفاً ان يصرع رجلاً يخاف الموت هذه المخافة التي لا يرضاها من منازِله في مجالِ صراع . ولو غير عليّ أتيحَ له أن يقضي على عمرو لعلم انه قاضٍ على جرثومة عداءٍ ودهاءٍ فلم يبالِ أن يصيبه حيث ظفر به ، ولا جناحَ عليه .

***

لقد كان رضاهُ من الآداب في الحرب والسلم رضا الفروسية العزيزة من جميع آدابها ومأثوراتها .

فكان يعرف العدّو عدواً حيثما رفع السيف..لقتاله ولكنه لا يعادي امرأةً ولا رجلاً مولياً ولا جريحاً عاجزاً عن نضال ولا ميّتاً ذهبت حياته ولو ذهبت في سبيل حربه .. بل لعله يذكرُ له ماضيه يومئذٍ فيقفُ على قبرِه ليَبكيه ويرثيهِ ويصلّي عليه .

وهذه الفروسية هي التي بَغضت اليه أن يَنال أعداءه بالسّباب وليس من دأب الفارس أن ينالَ أعداءه بغير الحسام .

فلما سمعَ قوماً من أصحابه يسبّون أهل الشام أيامَ حروبهم بصفِين قال لهم : « اني أكرهُ أن تكونوا سبّابين ، ولكنكم لو وَصفتم أعمالَهم وذكرتم حالهم كان أصوب في القول ، وأبلغَ في العذر ، وقلتم مكان سبّكم اياهم : اللهم احقن دماءنا ودماءهم ، وأصلح ذات بيننا وبينَهم ،

واهدِهم من ضَلالهم حتى يَعرفَ الحق مَنْ جهله ، ويَرعوي عن الغيّ والعدوان من لَهج به » .

وربما شذعن سنّته هذه في بعض الأحايين فاذا به لا يشذ عنها الاّ كما يشذ الفرسان حين تغلبهم بوادرُ اللسان .. فندر بين رجال السيفِ من يسمع الكلمة المغضبَة فلا ينطقُ لسانه بكلمة عوراء يجاري بها غضبه الذي طبع على ابدائه ولم يُطبع على كتمانه .

ومن قبيل هذا كلمات قالها عليّ في ابن العاص وفي مُعاوية وفي الأشعث بن قيس وغيرَ هؤلاء. ولكنه لم يجعلها ديدناً له كما سبوه على المنابر وأشاعوا مذمّته بين أهل الأمصار .

شغبَ عليه الأشعث بن قيس ومرّد عليه الجند وأفشى بين أنصاره الفتنة وقاطعه مرة وهو يخطبُ على منبر الكوفة فاغضبهَ وهاج غيظه فبدَره بقوله : « عليك لعنة الله ولعنة اللاعنين : حائك بن حائك ، منافق ابن كافر ، والله لقد أسرك الكفرُ مرّة والاسلام أخرى ، فما فداك من واحدة منهما مَالُك ولا حسبُك ، وان امرأ ولىّ على قومه السيف وساق إليهم الحتف لحريٌ أن يمقته الأقرب ولا يأمنه الأبعد » .

* * *

وطفق ابن العاص ينعته بين أهل الشام بالهزل والدعابة ويأمر بسبه على المنابر حتّى وجب ردّه وادحاضُ زعمه. فقال رضيَ الله عنه في بعض خُطبه : عجباً لابن النابغة !.. يزعمُ لأهل الشام ان فيّ دعابةً ، اني امرؤ

تلعابة : اعانس وامارس [١] . لقد قال باطلا ونطق آثما . أما – وشرّ القول الكذب – انه لَيقول فَيكذب ، ويَعدُ فيخلف ، ويُسأل فيبخل ، ويخونُ العهد ويقطعُ الآل [٢] ، فاذا كان عند الحرب فأيُّ زاجر وآمر هو ما لم تأخذ السيوف مآخذها . فاذا كان ذلك كان أكبرَ مكيدته أن يمنح القوم سبّته . أَمَا والله اني ليمنعُني مِنَ اللعب ذكرُ الموت . وانه ليمنعه من قول الحقّ نسيانُ الآخرة . انه لم يُبايع معاوية حتى شرط أن يؤتيه آتية ويرضخ له على ترك الدين رضيخة [٣]

وكذلك كان يجبه مُعاوية وغيره بنظائِر هذه الكلماتِ حين يَجترئون عليه بما يغضّ من حقه ويقدح في دَعوته . فلا يشذ عن دَيدَن الفرسان في رويّة فكره ولا بوادِر لسانه ، ولكن الفَلتات التي من هـذا القبيل شيءٌ واتخاذُ السباب صناعةً دائمة وسلاحاً مشهوراً وسبيلاً الى القولِ الباطل شيءٌ آخر ..

ولقد كانت للامام رضيَ الله عنه شواغل أخرى غـــير الفروسية تجري في مجراها حيناً وتبدو غريبـةً عنها حيناً آخر في عُرف بعض الناقدين ، ومنها التفقه والنزُوع الى « التصوّف » واستنباط حقائق الأشياء .

* * *

---

١) المانسة : مضاربة الناس مزاحاً ومغازلة النساء .

٢) الآل : القرابة والرحم .

٣) الآتية : العطية . ومثلها الرضيخة مع قلة .

فهذه في عُرف في بعض الناقدين ليست من مِزاج الفروسيّة على ظاهر ما قدّروه .. ولكن ما التصوّف أو التجرد للحقيقة ..؟ أليسَ هو في معدنه جهاداً في الحق أو جهاداً في الله ..؟ أليستَ طبيعة الجهاد وطبيعة الفروسية من معدن واحد ..؟ ألم نعهد في كلّ مِلّة وكلّ زمان فئات من الناس يجاهدون لأنهم متدينون مُتنطسون ، أو يتديّنون ويتنطسُون لأنهم مجاهدون ..؟

فالامام عليّ رضيَ الله عنه فارسٌ لا يخرجُه من الفروسية فِقْه الدين بل هو أحرى أن يسلكه فيها . ولا يخرجُه من الفروسية بعضُ المقال في خصومه بل هيَ بوادِر الفرسان بعينها ، ولا تزالُ آداب الفروسية بشتّى عوارضها هيَ المفتاح الذي يُدار في كل بابٍ من أبوابِ هذه النفسِ فاذا هو منكشِف للناظِر عمّا يليه .





٣

إسلامه

وُلد عليّ في داخل الكعبة، وكرّم الله وجهه عن السجود لأصنامها، فكأنما كان ميلادُه ثمة إيذاناً بعهدٍ جديد للكعبة وللعبادة فيها.

وكادَ علي أن يولَد مُسلماً ..

بَل لقد وُلد مسلماً على التحقيق اذا نحنُ نظرنا الى ميلادِ العقيدة والروح، لأنه فتح عينيه على الاسلامِ ولم يَعرف قط عبادة الأصنام.

فهو قد تربّى في البيتِ الذي خرجت منه الدعوةُ الأسلامية وعرفَ العبادةَ من صلاة النبيّ وزوجته الطاهِرة قبل ان يَعرفها من صلاة أبيه وأمّه، وجمعت بينه وبينَ صاحِب الدعوة قرابة مضاعفة ومحبة أوثقُ من محبة القرابة. فكان ابن عمّ محمّد عليه الصلاة والسلام وربيبه الذي نشأ في بيته ونَعم بعطفه وبرّه. وقد رأينا الغرباء يُحبون محمداً ويؤثرونه على آبائهم وذويهم. فلا جرم يُحبه هذا الحبّ مَنْ يجمعه به

جدٌّ ، ويجمعه به بيتٌ ، ويجمعه به جميل معروف : جَميلُ أبي طالب يؤديه محمد وجميل محمد يحسُّه ابن أبي طالب وياوي إليه ..

واختلفوا في سنِّه حين اسلامه من السابعة الى السادسة عشرة،ولعله أسلمَ في نحو العاشرة لأنه كان يُناهزها عند اعلان الدعوة المحمدية ، وكان النبيُّ عليه السلام يتعبَّد في بيته عبادَةَ الاسلام قبـــلَ الدعوة بفترةٍ غير قصيرة ، وليس ما يَمنعُ عليّاً أن يالف تلك العبادة في طُفولته الباكرة .

فاذا هِو نَفر منها وأعرض عنها لغير سببٍ في تلك الطفوُلة الباكرة فالعجيبُ انه يعودُ الى ألفتها والرضا بها بعد أن بلغَ السنَّ التي يعرف فيها معنى الغضب لعبادة الآبَاء والأجداد .

ولولا ألفةُ عليّ لابن عمّه وكافِله لما قربّته القرَابة وحدَها مِنَ الدّين الذي دُعي اليه،فقد أصر كثيرٌ من أقرباء النبيّ على الشّرك زمناً طويلاً، منهم عقيل أُخوه وأحبُّ اخوته الى ابيه . فحاربَ المسلمين في بَدر ولم يُسلم وقد وقع في أسر النبيّ وصحبه : بل افتداهُ عمّه العبـاس وخرج مِنَ الأسر وهو على دِينه ، ثم أسلمَ بعد صُلح الحديبية مـع طَائفة من الغرَباء والأقربين

على ان الألفة بين ابنَي العم الكريمين قد أوشَكت أن تكونَ عائقاً لاسلامِ عليٍّ في طُفولته الباكرة . لأن النبيّ عليه السّلام أبى أن ينتزعَ الطفل من دين أبيهِ وابوهُ لا يعلم ، وأشفق أن يكونَ برّه بعمّه وبابن

عمه سبيلاً الى التفرقة بين الأبِ وابنه وهو لا يُدركُ ما يفعل ، ولم يشأ أن يعوّد الطفلَ الصغير أن يخفِي سرّاً عن أبيه كانه يخدعه باخفائه ولو في سبيل الهداية والخير . فظلّ هذا الحرج الكريم عائقاً عسيراً أعسرُ ما فيه انه عائقُ اختيار يهونُ معه الاضطرار ، أو عائقُ حيرةٍ تقل فيها حِيلةُ الكريم . حتّى شاعَ أمرُ الدعوة المحمدية وَعِلم بها أبو طالب و نَصرَ ابن أخيه وأمر عليّاً بمتابعة ابن عمه ونصره . فاقبلَ الغـــلام البرّ بأبيه وبكافِله اقبالاً لا تلجلجَ فيه على الدين الجديد .

وملأ الدينُ الجديدُ قلباً لم ينازعه فيه منازعٌ من عقيدةٍ سابقةٍ ولم يخالطه شوب يكدر صفاءه ويرجع به الى عقابيله .. فبحقٍّ ما يُقال ان علياً كان المسلم الخالص على سجيته المثـلى ، وان الدين الجديد لم يَعرف قط أصدقَ اسلاماً منه ولا اعمق نفاذاً فيه .

***

كان المسلمّ حق المسلم في عبادتِه ، وفي عِلمِه وعَمَلِه ، وفي قَلبـــه وَعقله ، حتى ليصحّ أن يقال انه طُبع على الاسلام فلم تزده المعرفة الاّ ما يزيده التعليمُ على الطباع ..

كان عابداً يشتهي العبادةَ كانها رياضة تريحـه وليست أمراً مكتوباً عليه. وكان يرى في كهولته وكانما جبهته ثفنةُ بعيرٍ من ادمان السجُود.

وكان على محجة في الاسلام لا يحيد عنها لبغية ولا لخشية ، فكلمـــا

زيّنوا له الهوادة أبى «أن يُداهن في دينه ويُعطي الدنيـة في أمره» وآثر الخيرَ كما يَراهُ على الخير كما يَراهُ الناس ..

وكان دينه له ولعدّوه ، بل له ولعدوٌ دينه ، فما كان الحقّ عنده لمن يرضاه دون من يقلاه ، ولكنه كان الحق لكلّ من استحقه وإن بَهته وآذاه ..

وَجد دِرعه عند رجل نصرانيّ فاقبلَ به الى شريح – قاضية – يخاصمهُ مخاصمةَ رجل من عامّة رعاياه ، وقال : انها درعي ولم أبع ولم أهب ، فسال شريح النصراني : ما تقولُ فيما يقولُ أمـيرُ المؤمنين ..؟ قال النصرانيّ : ما الدّرع الا درعي وما أميرُ المؤمنين عندي بكاذب !.. فالتفت شريح الى عليٌّ يساله : يا أمير المؤمنين هَل من بيّـنة ! .. فضحك عليٌّ وقال: أصابَ شريح . مـــا لي بينة ! .. فقضى بالدرع للنصرانيّ فاخذها ومشى و «أميرُ المؤمنين» ينظر إليه ... إلا أن النصرانيّ لم يخط خطوات حتى عادَ يقولُ : أما أنا فاشهدُ ان هذه احكامُ أنبياء .. أميرُ المؤمنين يدينني الى قاضيه يقضي عليه ! . أشهدُ أن لا الَـه الا الله وان محمداً رسول الله ، والدرعُ والله درعُك يا أمير المؤمنين . اتبعتُ الجيشَ وانتَ منطلقٌ الى صّفين فخرجت من بعيرك الأورق . فقالَ : أما اذا أسلمتَ فهي لك . وشهدَ الناسُ هذا الرجلَ بعد ذلك وهو من أصدق الجند بلاءً في قتالِ الخوارج يومَ النهرون .

***

وأحسنَ الاسلام علماً وفقهاً كما أحسنهُ عبادةً وعملاً . فكانت فتاوَاه مرجعاً للخلفاء والصحابة في عهودِ أبي بكر وعُمر وعُثمان ، ونَدُرت مسالة من مَسائل الشريعةِ لم يكن له رأيٌ فيها يؤخذُ به أو تنهضُ له الحجة بين أفضلِ الآراء .

الا ان المزية التي امتاز بها عليٌّ بين فقهَاء الاسلَام في عصره انهُ جعلَ الدين موضُوعاً من موضوعَات التفكيرِ والتأمّل ولم يقصره على العِبادة واجراء الأحكام ، فاذا عرف في عَصره اناس فقهواُ في الدين ليصحّحوا عباداته ويَستنبطوا منه أقضيته وأحكاَمه ، فقد امتازَ عليٌّ بالفقه الذي يُرادُ به الفكرُ المحض والدراسة الخالصة ، وأمعنَ فيه ليغوصَ في أعماقه على الحقيقة العلمية ، أو الحقيقة الفلسفية كما نسميها في هذه الأيام .

ويصحُّ أن يقال ان عليًا ، رضي الله عنه أبو عِلم الكلام في الاسلام ، لأن المتكلمين أقاموا مَذاهبهم على أساسه كما قالَ ابن ابي الحديد في شرح نهج البلاغة . فواَصل بن عطاء كبيرُهم تلميذ أبي هاشم عبد الله ابن محمد بن الحنفية ، وابو هاِشم تلميذ أبيه ، وأبوه تلميذ عليٌّ رضي الله عنه . وأما الأشعرية فانهم ينتمون الى أبي الحسن عليٌّ بن أبي الحسن على بن أبي بشر الأشعريّ وهو تلميذ أبي علي الجبائي ، وأبو علي الجبائي أحد مشاِيخ المعتزلة الذين عَلمهمُ واصل بن عطاء .. أما الفقه فامامه الأكبر أبو حَنيفه قرأ على جَعفر بن محمد وجعفر بن محمّد قرأ على

أبيه وهكذا ينتهي الأمرُ الى عليٍّ رضي الله عنه. وقدقرأ مالك بن أنس على ربيعة الرأي ، وقرأ ربيعة على عكرمة ، وقرأ عكرمة على عبدالله ابن عباس وقرأ عبد الله بن عبّاس على عليٍّ رضي الله عنه . وقيل لابن عباس : أينَ عِلمك من عِلمِ ابن عمّك ؟: فقال : كنسْبَة قطرةٍ من المطرِ الى البحْر المحيط .

***

قال ابنُ أبي الحديد : « ومن العلوم علمُ الطريقة والحقيقة وأحوال التصوّف . وقدعرفتُ ان أربابَ هذا الفن في جميعِ بلاد الاسلام اليه ينتهونَ وعندَه يقفون . وقد صرّح بذلك الشّبلي والجنيد وسري وأبو زيد البسطامي وأبو محفوظ معروف الكرخي وغيرهم .ويكفيك دلالة على ذلك:الخِرقةُ التي هيَ شعارُهم الى اليومِ ، وكونُهم يُسنِدونها باسنادٍ متصلٍ اليه عليه السلام » .

***

وقد جمعَ « نهج البلاغة » نماذجَ شتّى مِنَ الكلمات التي تُنسبُ اليه ويصح أن تُحسب أصلاً « للعلم الالهي » أو لأسرار التصوّف في صدر الاسلام قبل اشتغال المسلمين بفلفسة اليونان وحكمة الأمَم الاجنبيّة .وربما وقع الشكّ في نسبة بعض الكلمات الى عليٍّ رضي الله عنه لأنها تجمّعت بعد عصره بزمن طويل وامتزج بها ما لا بد أن يمازجها مِنْ علوم القرن الثالث و ما بعده . ولكن شيئاً على هذا النهج لا بد أن يكون قد

صدر منه حقاً حتى جاز أن يتصّل النسب بينه وبين أئمة التوحيد وعِلم الكلام على النحو الذي تواترت به الأقوال ، وأجمَله ابن أبي الحديد فيما تقـدم . .

* * *

ولنا أن نقول انه كان رضي الله عنه يتتلمذ القرآن الكريم ويستوحيه نصّاً في عرفان اسلامه وتقرير ايمانه . فكانت نظرتهُ الى الخلْـق والخالق نظرة قرآنية يبتكر مـــا شاء ابتكار التلميذ في الحكاية عَن الأستاذ ، فكلاُمه عن الطـاووس والخفاش والزرع والسحاب انمـــا هو الدرس القرآني الذي وَعاه من أمر الكتاب بالنظر في المخلوقات ووصف الكتاب لطوائفَ منها كالنمل والنحل والطير والأجنة في الأرحام . فهو تلميذ ربّه جلّ وعلا في قوله عن الخفـــاش : « مِن لطائف صنعته وعجائب حكمته ما أرانا مِن غوامض الحكمة في هذه الخفافيش التي يقبضها الضياء الباسط لكل شيء ويبسطها الظلام القابض لكل حي ، وكيف غشيت أعينها عن أن تستمد من الشمس المضيئـة نوراً تهتدي به في مذاهبها .. فسبحان من جعل الليل لها نهاراً ومعاشاً . والنهار لها سكناً وقراراً ، وجعل لها أجنحة مِن لحمها تَعرج بها عند الحاجة الى الطيران كأنها شظايا الآذان ، غير ذوات ريش ولا قصب .. تطير وولدهـا لاصقٌ بهـا لاجىء إليها، يقع اذا وقعت، ويرتفع اذا ارتفعت، لا يفارقها حتى تشتد أركانه ، ويحمله للنهوض جناحه، ويعرف مَذاهب عيشه ومصالح نفسه، فسبحان البارىء لكل شيء على غير مثال خلاف غيره » .

ومثله قوله عن الطاووس: «ومن أعجبها خلقاً الطاووس الذي أقامه في أحكم تعديل . نضّد ألوانه في أحسن تنضيد ، بجناح أشرج قصبه وذَنب أطال سحبه ، اذا درج الى الأنثى نشره من طيه ، وسما به مظلا على رأسه . وقد ينحسر من ريشه ويعرّى من لباسه فيسقط تترى وينبت تباعاً ، فينحت من قصبة نحتات أوراق الأغصان ، ثم يتلاصق ثانياً حتى يعود كهيئته قَبل سقوطه لا يخالف سالف ألوانه ولا يقع لون في غير مكانه » .

ونحن لا نستغرب ابتداء هذا النمط من النظر الفلسفي على نحو من الأنحاء في عصر الامام عليٍّ رضي الله عنه . لأنه كان عهداً نبتت فيه أصول الفِرَق الاسلامية جميعاً من الخوارج والشيعة والقائلين بالرجعة وتناسخ الأرواح والمجتهدين في قراءة القرآن وتفسيره على شتى المذاهب . فاقرب شيء الى المعقول أن يكون امام العصر كله قدوة في الاجتهاد والنظر وعنواناً للنوازع التي تفرقت بين أهل زَمانه وتعبيراً صادقاً لتفكيره ووعيِه ، وصاحب أقوال من قبيل هذه الأقوال التي قدمناها وان لم تكن هي اياها بالنص والتفصيل .

ويستقيم مع هذا التقدير أن يكون الامام على سجيته مُؤثراً للاجتهاد ما استطاعه ، معرضاً عن التقليد ما استغنى عنه ، فوافق الخلفاء من قبله في أمور وخالفهم في أمور ، وأبى أن يأتمّ بعملهم فيما يراه وما لا يراه ، وأوصى ابنه الحسن وقد بلغ الستين فقال : « .. اعلم يا بنيّ ان أحب ما أنت آخذ به اليَّ من وصيتي تقوى الله والاقتصار على ما فرضه الله عليك

والأخذ بما مضى عليه الأولون من آبائك والصالحون من أهل بيتك ، فأنهم لم يدعوا ان نظروا الى أنفسهم كما أنت ناظر وفكروا كما أنت مفكر .. فان أَبَت نفسك أن تقبل ذلك دون أن تعلم كما عَلموا فليكن طلبك ذلك بتفهم وتعلم ، لا بتورط الشبهات ، وعلق الخصومات ، وابتدىء قبل نظرك في ذلك بالاستعانة بالهك، والرغبة إليه في توفيقك ، وترك كل شائبة أولجَتك في شبهة أو أسلمتك الى ضلالة ، فان أيقنت أن فد صفا قلبك ، وتم رأيك فاجتمع ، وكان هَمُّك في ذلك هماً واحداً فانظر فيما فسّرت لك .. »

وربما كانت هذه الوصية وحدها كافية للتعريف باسلام عليّ كما ارتضاه لنفسه وارتضاه للقادرين عليه من أتباعه .. فانما هو اسلام المسلم « المطبوع » الذي يبتكرُ دينه لأنه يعتمد فيه على وحي بصيرته وارتجالِ مزاجه ، وانما هو اسلام الحكيم المجتهد الذي يرجع في الحكمة والاجتهاد الى رياضة النفس على سُنة النساك وتمحيص الفكر على سُنة العلماء ، وانما هو اسلام الرجل الذي أتيح له أن يتتلمذ لربه ويتربى في حجر نبيّه ويصبح إماماً للمقتدين من بعده .



٤

عَصْرالإمام

كانت الظاهرة الكبرى في عصر « عليّ » ظاهرة اجتماعية خاصة به دون عصور الخلفاء من قبله ، ولم تكن في حقيقتها ظاهرة سياسية أو حربية عسكرية ، على شدة القتال فيها وغزارة الدماء التي أريقت في حروبها .

فعصر أبي بكر كان هو العصر الذي نشأت فيه الدولة الاسلامية .

وعصر عمر كان هو العصر الذي تمّ فيه انشاؤها .

وعصر عثمان كان هو العصر الذي تكوّن فيه المجتمع الاسلامي بعد نشأة الدولة الجديدة . فبرز فيه نظام جديد على أساس الثروة المجلوبة من الأقطار المفتوحة ، وعلى أساس الولايات التي تولاها بعض الطبقات المرشحة للرئاسة من العلية وأشباهها .

أما عصر عليّ فكان عصراً عجيباً بين ما تقدمه وجاء في أعقابه أو هو

لم يكن عجيباً لأنه جرى على النحو الذي ينبغي أن يجري عليه ، فلم يثبت كل الثبوت ولم يضطرب كل الاضطراب لأنه كان بناء جديداً في سبيل التمام ، ولم يكن بناء متداعياً فكله هدم واندثار ، ولا بناء قائماً مفروغاً منه فكله رسوخ واستقرار .

الا ان العجيب فيه حقاً انه انقسم بين ثُبوته واضطرابه قسمين اثنين متقابلين : في أحدهما كل عوامل الرضا عن النظام الاجتماعي والرغبة في بقائه وتدعيمه ، وفي الآخر كل عوامل التذمر من النظام الاجتماعي والتحفز لتقويضه وتحويله .

أحدهما ، وهو قسم الرضا عن النظام الاجتماعي ، كان قسم معاوية ابن أبي سفيان في الشام وما جاورها .

والآخر ، وهو قسم التذمر من النظام الاجتماعي ، كان قسم عليّ ابن أبي طالب في الجزيرة العربية بجملة أنحائها

كانت الشام بمعنى مِنَ المعاني أرضاً أمويّة في عهد الجاهليّة فلجأ اليها أمية جدّ الأمويين حِين غلبه هاشم على الزعامة ، وقصد اليها أبناؤهُ متجردين أو مهاجرين الى ما بعد قيام الدعوة الاسلامية .

ثم قامت الدعوة الاسلامية فكان مِن نصَيب يزيد بن أبي سفيان ان يتولى الامارة والقيادة على الشّام من قبل الخليفةِ ابي بكر الصدّيق ، وخلفه اخوهُ مُعاوية مِن قبل الخليفةِ عمر ، فلم يزل مقيماً على امارتها

بضع عشرة سنة الى مبايعة عليّ بالخلافة بعد مقتل عثمان . فاتسع له من فسحة الوقت وفسحة الرخاء مجال ممهّد لتأسيس السلطان الأموي الذي لا ينازعه منازع من حوله . ولم يزل منذ تولاها عاملا على البقاء فيها واصطناع الأعوان المؤيدين له في حكمها . فلم يتوان في استرضاء رجل ينفعه رضاه ، ولم يَقصر رعايته على الشرفاء دون السواد من الأتباع والأجناد . بل كان يُرضي كل من وسعه ارضاؤه ، وقد وسعت ثروة الشام كل صاحب حاجة مقيم عنده او ساع اليه .

واشتهرت عنه هذه الخصلة حتى قَصدَهُ أقرب الناس الى خصومه وأوْلاهم باجتنابه والنقمة عليه .. ومنهم عقيل أخو علي بن أبي طالب ، وعبدالله بن عمرو بن الخطاب ، وعبدالله بن زمعة ، وعمرو بن العاص ، وأناس من هذه الطبقة بين الشرفاء وذوي الأخطار .

أراد عقيل من أخيه مالاً يجريه عليه من بيت المال فاباه عليه لأنه ليس له بحق ،فتركه وأقبل على معاوية وهو يقول : « ان أخي خيرٌ لي في ديني ، ومعاوية خيرٌ لي في دنياي » وقس على ذلك ما يصنعه الغرباء عن عليّ والمقربون من معاوية بالنسب والرجاء .

قد همّه ارضاء السواد والعامة ، كما همه ارضاء الشرفاء وذوي الأخطار .. « وبلغ من إحكامه للسياسة واتقانه لها واجتذابه قلوب خواصه وعوامه ان رجلاً من أهل الكوفة دخل على بعير له الى دمشق في حال منصرفهم عن صفّين، فتعلق به رجل من دمشق فقال : هذه ناقتي

أخذت مني بصفين ، فارتفع أمرهما الى معاوية وأقام الدمشقي خمسين رجلاً بينة يشهدون أنها ناقته .. فقضى معاوية على الكوفي وأمره بتسليم البعير إليه . فقال الكوفي : أصلحك الله انه جمل وليس بناقة . فقال معاوية : هذا حكم قد مضى . ودس الى الكوفي بعد تفرقهم فأحضره وساله عن ثمن بعيره فدفع اليه ضعفه وبرّه وأحسن إليه ، وقال له : « أبلغ علياً أني أقابله بمائة ألف ما فيهم من يفرق بين الناقة والجمل ! »

ولقد بلغ من أمرهم في طاعتهم له انه صلى بهم عند مسيرهم الى صفين الجمعة في يوم الأربعاء واعاروه رءوسهم عند القتال وحملوه بها [1]

فان كان في هذه القصص بعض المبالغة فهي مبالغة الفكاهة الموكلة لتكبير الملامح ليراها من غفل عنها ، وليست مبالغة الخلق والافتراء .

وما هي إلا سنوات على هذه الوتيرة حتى اجتمع له كل منتفع بالنظام الاجتماعيّ الجديد ، راغب في تدعيمه ووقايته من نُذر الخطر والزوال.

وعلى قدر هذا الدأب الشديد في اجتلاب أسباب التمكين والتدعيم كان له دأب مثله في اتقاء أسباب التمرّد ، والاخلال بالنظام ، كما

---

١ - مروج الذهب للمسعودي : الجزء الثاني .

نسمّيه في هذه الأيام . .

فما سُمعت قط صيحة فتنة الا بادر اليها بما يسكنها ويردها الى طلب الاستقرار والدوام . فَمَنْ أجدى معه المال أسكته باغداق المال عليه ، وَمَن كان مِنْ أهل الجد والاخلاص في العبادة والزهادة فهو محتال على اقصائه أو نفيه من الشام بحيلة يوافقه عليها شركاؤه في المصلحة ولا تعيبه .

حنق بعض الزهاد على هذا الترف الذي استفاض بين العلية والشرفاء فارتفعت عليهم صيحة أبي ذر الغفاري بالنكير ، وطفق يطالب الأغنياء بالانفاق في سبيل الله ، حتى ولع الفقراء بصيحته وشكا الأغنياء مايلقونه مِن نذيره أو بشيره : « وبشّر الذين يكنزون الذهب والفضة ولاينفقونها في سبيل الله بمكاوٍ من نار تكوى بها جباههم وجُنوبهم وظُهورهم » .

فأشفق معاوية من مغبة هذه الصيحة وارسل الى أبي ذر ألف دينار يسكته بها ان كان مِمّن يسكتهم الغنىَ عن الأغنياء ، فلما طلع النهار حتى كانت الدنانير في أيدي المعوزين الذين يلوذون بالداعية الأمين ويشكون إليه . ثم صلى معاوية الصبح وأرسل الى الداعية رسوله الذي حمل إليه الدنانير يقول له : « أنقذ جسدي من عذاب معاوية فانه أرسلني الى غيرك فاخطأت بك. فقال له: يا بنيّ ، قل له : والله ما أصبح عندنا من دنانيرك دينار .. ولكن أخرنا ثلاثة ايام حتى نجمعها » .. فعلم معاوية أن الرشوة هنا لا تغني عن القسوة . وكتب الى الخليفة ان أبا ذرّ أعضل به فلا طاقة له بالصبر عليه، فأتاه الاذن بنفي أبي ذرّ من الشام الى المدينة،

ثم ضاقت به المدينة ايضاً فنفي منها الى قرية من أرباضها حيث لا يُسمع له دعاء .

***

وصنع بعبدالله بن سبأ ـ صاحب القول برجعة النبي الى الدنيا ووصاية عليّ على الخلافة ـ مثل هذا الصنيع بعد ان داراه فأعياه ، فلما يئس منه ومن ترغيبه او ترهيبه ضيَّق عليه ثم اقصاه .

والتفت الى من سمّاهم اهل الفتنة من طلاب الاصلاح والتبديل فكتب في امورهم إلى الخليفة يقول : «انه قَدِمَ عَلَيّ اقوام ليست لهم عقول ولا أديان . أضجرهم العدل . لا يريدون الله بشيء ولا يتكلمون بحجة . إنما همهم الفتنة وأموال أهل الذمة ، والله مبتليهم ومختبرهم ثم فاضحهم ، وليسوا بالذين ينكون أحداً الا مع غيرهم . »

ثم أخرجهم من دمشق إلى غيرها مستريحاً منهم بالنفي والاقصاء ، كأنما دمشق وحدها من بلاد المسلمين هي التي ينبغي لها أن تستريح .

وهكذا تعاقبت السنون وكل سَنَة تزيد معاوية وفرة من أسباب الرضا والاستقرار وقلة من أسبَاب القلق والطموح الى التغيير ، حتى تحيزت له الشام عند مبايعة عليّ وفيها اعظم ما يتأتى في مثل ذلك العهد من دواعي السكينة واستدامة الحال ، واقل ما يتأتى فيه من شواجر

الفتنةو العصيان ..

أما علي فقد شاءت المصادفات أن تنعكس الآية في حصته من الدولة الاسلامية أيمـا انعكاس . فاوشكت أن تنعدم فيهـا دواعي الرضا والاستدامة ، وأوشكت أن تتم فيهـا شواجر الفتنة وما نسميه اليوم بالاخلال بالنظام ..

فكان التنافس عنده على أشده بين العاصمتين الحجازيتين وبين الكوفة، لا يَرضى أهل المدينة بما يُرضي أهل مكة ، ولا يَرضى أهل الكوفة بما يرضى به هؤلاء وهؤلاء . حتى ضاق به المقام في الحجاز وأوى الى الكوفة مأوى « المستجير من الرمضاء بالنار » .

***

وكانت قبائل البادية تنفس على قريش غنائم الولاية ومناصب الدولة ، وينظرون إليهم نظرتهم الى القوي المستأثر بجـاه الدين والدنيا وحق الخلافة والسطوة . وهي حالة كان أحجى بالولاة أن يخفُوها ويتلطفوا في اصلاحها أو تبديلها ما استطاعوا لها من اصلاح وتبديل ، ولكنهم على نقيض ذلك كانوا يباهون بها ويجهرون بحديثها حتى قال سعيد بن العاص والي الكوفة : « انما السواد بستان لقريش ! » .

وظهر هذا السخط من إثرة قريش في خطب المتكلمين بلسان أهل البادية حين نشب النزاع بين طلحة والزبير وأنصارهمـا وبين عليّ

وأنصاره ، فقام في الجمع رجل من عبد القيس يقول :

« يا معشر المهاجرين ! . انتم أول من أجاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان لكم بذلك فضل ... » الى أن قال يشير الى خلافة أبي بكر : « ولم تستأمرونا في شيء من ذلك فجعل الله للمسلمين في إمارته بركة ، ثم مات واستخلف عليكم رجلا فلم تشاورونا في ذلك. فرضينا وسلمنا . فلما توفي جعل أمركم الى ستة نفر فاخترتم عثمان ، وبايعتموه عن غير مشورة منا ، ثم بايعتم عليًّا من غير مشورة منا . فما الذي نقمتم عليه فنقاتله ؟ » .

وهذا كلام رجل يدين بفضل المهاجرين ويقدمه في صَدر مقاله ، فكيف بكلام الرجل ممّن ينسون هذا الفضل أو تغلبهم المنافسة على الشهادة به في معرض الخصومة ؟ .. ولعل النافثين بهذا الغيظ كانوا يثوُبون الى بعض الصبر والتجاوز لو انهم وجدوا من يشكون إليه فيحسن الاصغاء والاعتراف لهم بالحق في دعواهم ، ولكنهم كانوا يشكون فيثور بهم المخالفون ويلجئونهم الى الصمت راغمين . فلما قال ذلك الرجل مقالته هموا بقتله لساعته لولا ان حَمته عشيرته وصحبه. ثم وثبوا عليه في الغد فقتلوه وقتلوا معه قرابة سبعين .

***

وكان العبيد والموالي والأعراب المحرومون حانقين متبرمين لا يرضون

عن حظهم من العيش بعد أن علمهم الاسلام حقوق المساواة وشرع لهم شريعة الانصاف . ولقد يكون معظم المتآمرين على قتـل عثمان من هؤلاء العبيد والموالي والأعراب المحرومين . فلما طُولب عليّ بالاقتصاص منهم لمقتل عثمان قال : .. « كيف أصنـــع بقوم يملكوننا ، لا نملكهم ؟ ها هم هؤلاء قـــد ثارت معهم عبدانكم وثابت إليهم أعرابكم ، وهم خلالكم يسومونـكم مـا شاءوا فهلا ترون موضعاً لقدرة على شيء ممـــا تريدون . »

وقالت السيدة عائشة ، رضي الله عنها : « أيها الناس !. ان الغوغاء من اهل الأمصار واهل المياه ، وعبيد أهل المدينة اجتمعوا على هـــذا الرجل المقتول ظلماً بالأمس . والله لأصبع عثمان خـير طباق الأرض أمثالهم . »

***

وكان مع عليّ جمهرة القراء والحفاظ وأصحاب النسك والفقـــه والشريعة ، وهم خلق كثير يعدونـ بالألوف ويتفرقون في الحواضر والبوادي ، ولا يزالون كأنبياء بني اسرائيل مُنذرين مُتوعدين سَاخطين على تَرف المترفين ، مُنكرين لكل خلاف ولو يسير في اقامة أحكام الدين. لا يرضون عن الدنيا ولا عمن رَضي بها من طلابها،ولا يستمعون الى أمر الا أن يكونـ في رأيهم وفاقاً لحكم القرآن كما يفسرونه وحكم السنة

كما يعتقدونها . وطالما وقفوا بين عليّ وبين القتال لأنهم لا يستجيزونه ، أو عن الصلح والتحكيم لأنهم يجلّون القرآن عن قبوله . فاذا كان أجناد مُعاوية يسمعون الحق والباطل لأنهم لا يفرقون بينهما ولا يفرقون بين الجمل والناقة ، فهؤلاء الأجناد العارفون لا يَسمعُون الا ما أجازوه واستوجبوه ، لأنهم خرجوا في الأرض للتفريق بين الحلال والحرام والمعروف والمنكر . فلا يُجمِعون على طاعة ولا يحاربون أو يسالمون في جماعة . وهم أقرب الناس في ذلك العهد الى الجهر بالنذير والنداء بالتبديل والتغيير ، والاصغاء الى وحي الضمير قبل دعاء الأمير .

واجتمع مع عليّ في الحجاز والكوفة كل منافس على الخلافة متطلع اليها ولو لم يجهر بطلبها مخافة من شركائه الذين يزحمونه عليها ، فمنهم من كان يقول لعليٍّ : نبايعك على أنا شركاؤك ، ومنهم من كان يتعلل بقلة المشاورة له والمبالاة بقوله ، ومنهم من كان يحارب عثمان ثم أصبح يحارب عليّا باسم عثمان ، تمحُّلاً لذرائع الخلاف وكراهة لاستقرار الأمور ..

***

وقد كان أبو بكر وعُمر يمسكان كبار الصحَابة بالحجاز ويحذران منهم أن ينطلقوا في الأرض فيُقبلوا على الدنيا ويشجر بينهم من النزاع ما يشجر بين طلابها . ثم ينصدع شمل الأمة بالتشيّع لهم وعليهم والتفرق بين

أنصارهم وأعدائهم ، وأوصى ابو بكر خليفته من بعده قائلاً :

« .. احذر هؤلاء النفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين انتفخت أجوافهم وطمحت أبصارهم وأحبّ كل امرىء منهم نفسه ، وان منهم لحيرة عند زلة واحد منهم فإياك أن تكونه ، وأعلم انهم لن يزالوا منك خائفين ما خفت الله » ..

فلما صارت الخلافة الى عثمان أهمل هذه السياسة الحكيمة وشقّ عليه أن يطيل حبسهم بالحجاز والهيمنة عليهم بجواره، فانطلقوا حيث ذهبت بهم المذاهب ، وكان منهم ما حذره أبو بكر حيث قال لعبد الرحمن بن عوف : « ورأيتم الدنيا قد أقبلت .. حتى تتخذوا سُتُور الحرير ونضائد الديباج وحتى يألمَ أحدكم بالاضجاع على الصوف الأذربي [1] كما يألم أحدكم اذا نام على حسك السعدان » .

***

روى المسعودي انه « في أيام عثمان اقتنى الصحابة الضياع والمال ، فكان لعثمان يوم قتل عند خازنه خمسون ومائة ألف دينار وألف ألف درهم، وقيمة ضياعه بوادي القرى وحنين وغيرهما مائة ألف دينار وخلف إبلا وخيلا كثيرة وبلغ الثمن الواحد من مَترُوك الزبير بعد وفاته خمسين ألف دينار ، وخلف ألفَ فرس وألف أمة. وكانت غلة طلحة من

١ ـــ منسوب الى اذربيجان .

العراق ألف دينار كل يوم ومن ناحية السراة أكثر من ذلك . وكان على مربط عبد الرحمن بن عوف ألف فرس وله ألف بعير وعشرة آلاف من الغنم ، وبلغ الربع من متروكه بعد وفاته اربعة وثمانين ألفاً ،وخلف زيد ابن ثابت من الذهب والفضة ما كان يكسّر بالفئوس غير ما خلف من الأموال والضياع . وبني الزبير داره بالبصرة وبنى أيضاً بمصر والكوفة والاسكندرية .. وكذلك بنى طلحة داره بالكوفة وشيّد داره بالمدينة وبناها بالجص والآجر والساج ، وبنى سعد بن أبي وقاص دارَه بالعقيق ورفع سمكها وأوسع فضاءها وجعل على أعلاها شرفات ، وبنى المقداد داره بالمدينة وجعلها مجصّصة الظاهر والباطن ، وخلف يعلى بن منبه خمسين ألف دينار وعقاراً وغير ذلك ما قيمته ثلاثمائة ألف درهم » .

***

هؤلاء أيضاً اصبحوا في حصة عليّ من الدولة الاسلامية عنصراً من اقوى عناصر القلق والتبرم والنفور من دوام الأمر للحكومة الجديدة ، خلافاً لأمثالهم في معسكر معاوية .

فالذي يغلب على اصحاب الثروات في كل مجتمع انهم انصار الحالة القائمة واعداء الثورة والاضطراب السياسي اه الاجتماعي على التخصيص ، ولكن هؤلاء الأغنياء خالفوا المعهود في مجتمع عليّ فأصبحوا قادة السخط والشكوى واعوان الثورة والتغيير ولو في سرائر

القلوب كلما حيل بينهم وبين الظهورِ في الثورةِ بفعل محسُوس . لأنهم عرفوا عليّاً من قبل ومن بعد فعلموا انه لن يقرهم على ما هم فيه ولن يلبث أن يحاسبهم على ما جمعوه مِنَ المال أو يأخذ عليهم طريق المزيـــد .

عرفوا مذهبه في حساب الولاية ومذهبه في حساب الخلافة . فلما كان والياً لليمن أبى على بعض الصحابة أن يركبوا إبل الصَدَقَةِ وقال لهم : انما لكم منها سهم كما للمسلمين ، ثم لام العامل الذي أذن لهم أن يركبوها في غيبته وهو منصرف الى الحج . وشاعت هذه القصة لأن أناساً شَكُوه الى رسول الله عليه الصلاة و السلام ، فأنكر شكواهم منه وقال: « لقد علمت انه جيش في سبيل الله ».

***

ولما قام عثمان بالخلافة طال عتب عليّ عليه ، لأنه أباحَ للعمّال والوُلاة ما ليس بمباح في رأيه ، ولقي بالعتاب كل صحابيّ من اخوانه جمع مالاً واستهوته فتنة البذخ والثراء .

وليس مذهبه والياً ولا مذهبه خليفةً بمريح أولئك الأغنيـاء الذين ذاقوا حلاوة الغنى وكرهوا ان يحرموه أو يحاسبوا عليه .

ولم يكن في وسع عليّ أن يغض عنهـم نظره ولو شاء ذلـك ، وهو لا يشاؤه ولا يحله لنفسه وقد أنكره على غيره . لأنه اذا غض نظره لم يستطع أن يغض الأنظار المفتوحة التي ثارَت بعثمان وبايَعت علياً بعده ليصنع

غير ما صنعه عثمان وغير ما أثارهم عليه .

فلا دعاة الدنيا راضون مطيعون، ولا دعاةُ الدين راضون مطيعون، ولا الفقراءُ والجهلاءُ راضون مطيعون ، وما منهم الا من هو قَلق متوفز لا يسكن به سكن ولا يدوم به قرار .

وكل أولئك كانوا في حصة عليٍّ من الدولة الاسلامية ، ولم يكن لمعاوية في حصته شاجرة فتنة من هذه الشواجر بل كان له في موضع واحدة منها دعامة تمكين وتأييد .

وان هذه الشواجر على كثرتها وقوتها لفي غنى عن عِلّة اخرى من علل الفساد والشقاق تضاف اليها .

ولكنها مع هذا لم تستوعب تلك العلل التي اصطلحت على حصة عليٍّ من الدولة الاسلامية . فقد اضيفت اليها علة اخرى، بل اضيفت اليها اكثر العلل التي تُبتلى بها دولة او حكومة . وهي اعتمادها في مواردها على غيرها ..

فكانت موارد الشام في الشام نفسها من خراج او انفال او تجارة . اما موارد الحجاز فقد كانت بعيدة منه وان دخلت في طاعته وجنحت الى القائم بالأمر فيه . وكانت مصر والسواد من حصة عليٍّ ، ولكنه لم ينتفع بمصر كثيراً لتعاقب الولاة فيها ، ولم يستفد بالسواد كثيراً لتعاقب الفتن والغارات عليها . وحسبك من هذا داعية قلق وباعث مخافة ومبطل امان وطمأنينة .

***

وينبغي أن نذكر ان الحيلة في هذه التقسيم قليلة ، وان الحوادث هي التي اختارت لكل حصة من الحصتين زعيمها وأشبه الناس بها وأقربهم الى ولاية أمرها و « كما تكونوا يُولّ عليكم » .. ولا محـــل في هذه القاعدة لحيلة أو اختيار ..

فلم يكن أحد أشبه بقيادة المنافع المستبقاة من معاوية ، ولم يكن أحد أشبه من عليٍّ بقيادة الشكوى التي تطمح باصحابها الى التغيير ..

ان شكا اناس غَلبة قريش ، فعليٌّ كان يشكو منها ويظن الظنون بحقدها عليه ونكرانها لحقه ، ويقول في كتاب من كتبه الى أخيـه : « ... ودع عنك قريشاً وتركاضهم في الضلال وتحولهم في الشقاق ، فان قريشاً قد أجمَعَت على حرب أخيك اجماعَها على حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل اليوم ... »

وان جاءت صيحة الاصلاح والتغيير عن طريق الدين على مذهب الحفّاظ والقرّاء والنساك فعليّ كان إمَامَ أهل العلم والقراءة، وأحق مَن يتكلم بتفقيه او تفسير .

وان جاءت من ضيم الفقراء فعليٌّ فقير، او من تهافت الوُلاة على المال فعليّ يبغض هذا التهافت كما يبغضه اضعف الفقراء، عن زُهدٍ فيه لا عن قلة الوسائل اليه ..

فما شكا شاكٍ قط الا وعليّ شريك له في شكواه، وكيف ينجو رجل كهذا من قيادة الدولة التي قامت على التبرم بالحال والطموح الى التغيير ؟..

وأية حيلة له الى جانب حيلة الحوادث وتوفيق المقادير ؟..

***

كان عليّ نموذج أصحابه الأعلى ، وكان معـــاوية نموذج أصحابه الأعلى . وكان لأجل ذلك في موضع رشحتها له الحوادث قسراً قبل أن يرشحا له بارادة مريد .

وما نحن بقادرين على وزن الرجلين ولا على المقابلة بينهما في الرأي والعمل ما لم نستحضر هذه الحقيقة أبداً ، وما لم نذكر أبداً ان أحدهما كان يعمل والحوادث حربٌ عليه، وان الآخر كان يعمل والحوادث عُدّة في يديه !..

٥

البَيْعة

بُويع لعليّ بالخلافة بعد حادثة من أفجع الحوادث الدامية في تاريخ الاسلام ، وهي مقتل الخليفة عُثمان بن عفان في شيخوخته الواهنة ، بعد أن حَصروه بين جدران داره ، وكاد يقتله الظمأ لو أمهله القتلة بضعة أيام ..

وأفجع ما كان في هذه الحادثة ، انها بلاء لا يدفع وقضاء لا حيلة لأحد في اتقائه لأن المسؤولين عنه كثيرون متفرقون في كل جانب يناصره أو يعاديه .. فاذا امتنع الأعداء لم يمتنع الأصدقاء ، واذا بطل الشر الذي فيه اختيار لم يبطل الشر الذي لا اختيار فيه ، وربما كان حُسنُ النية وسوءُ النية هنا صِنوين متساويين . فمن الأعمال المؤسفة التي عجلت بالفاجعة أعمال كثيرة بدرت من عثمان نفسه ، أو لعله أقدَم عليها بعد قصد ومراجعة ، وليست هي في تعجيلها ولا في سوء مغبتها بأهون من أعمال الأعداء ..

مضت السنون الأولى من خلافة عثمان على خير ما كان يرجى لها أن تمضى في عهد خليفة .

ثم تغيرت الأحوال فجأة من جانب الراعي ومن جانب الرعية ، لأسباب لم تكن طارئة ساعة ظهورها ، وان ظهرت عواقبها طارئات .

وتتعدد الأسباب التي أوجبت ذلك التغيير بعد السنوات الأولى ، ولكنها قد تنحصر في سببين اثنين جامعين لغيرهما من الأسباب العديدة ، وهما امعان الخليفة في الشيخوخة ، واستمراء الأعوان لما نعموا به من لين الخليفة ولين الرغد والمتاع .

ولقد كتبت الأسفار المطولات في احصاء المآخذ على عثمان رضي الله عنه ، وكتبت الأسفار المطولات في تبرئة الخليفة من تلك المآخذ أو الاعتذار له بأحسن الأعذار وتفسيرها على أحسن الوجوه ، لأن المسألة خرجت من عداد المسائل التاريخية ، وانتقلت الى ميدان النزاع بين الأحزاب والمذاهب وأقاويل الجدل والحجاج .. فجعلها الشيعيون وأهل السنة ذريعة الى تأييد مذهب وانكار مذهب في الخلافه والخلفاء ، وراح الأولون يبالغون في الاتهام كما يبالغ الآخرون في الدفاع . ولا طائل هنا من شرح هذا وذاك ، ولا هو مما يقتضيه كلامنا الآن .. وانما المرجع فيه الى تاريخ عثمان ..

الا اننا نجتزىء هنا بالاشارة الى التذمر الذي أثار الفتنة ، والالمام بأسبابه عند اصحابه .. فمما لا شك فيه انهم تذمروا لأسباب تثيرهم وان

طال الشك والجدل حول نصيبهم من الخطأ والصواب.

أهم هذه الأسباب ، انـه خالف بعض السنن التي اتبعهـا النبيّ عليه السلام في الأذان والصلاة ، وانه أدنى اناساً من اقاربـــه كان رسول الله عليه السلام قد اقصاهم عن المدينـة .. فاستدعاهم اليه بعـد استخلافه وأغدق عليهم المنح والأموال، وانـــه أطلق العنان لأبناء أسرته في الولاية والعمالة ، ومنهم من اتهموه باقامـــة الصلاة وهو سكران ، وانه منح سفيان بن حرب مائتي الف درهم ومنح الحـــارث بن الحكم زوج بنته عائشة مائة الف درهم من بيت المال، وانه توسع في بنـــاء القصور ، وحرم بعض الصحابة ، وضرب بعضهم على مشهد من الملأ ضرب اهانة وايجاع ..

ولم تنقض سنوات على هـذه الحـال حتى كثر المترفون من جانب والمتربون من جانب آخر ، وشاع بين الجانبين مـا يشيـع دائماً في امثال هذه الأحوال من الملاحاة والبغضاء والتزيد بالتهم واللجاجة ، واضافـة الأوهام الى الحقائق في خلق ذرائع الخلاف والشحناء .

ويدل على خطر مسالة الثروة في هذه الفتنة ، ان الناس تالبوا على الخليفة مرة . فارسل في طلب عليّ ليصرفهم عنه ، فلما قَدم اليه استاذنه في اعطائهم بعض الرفد العاجل من بيت المـال ، فأذن له . فانصرفوا عن زعماء الفتنة ، وهدءوا الى حين.

ثم توافد المتذمرون من الولايات الى المدينـة مجندين وغير مجنّدين .

وتولى زعامة المتذمرين في بعض الأحيان جماعة من أجلاء الصحابة ، كتبوا صحيفةوقعوها وأشهدوا فيها المسلمين على مآخـــذ الخليفة . فلما حملها عمار بن ياسر اليه ، غضب وزيره مروان بن الحكم ، وقال له : « أن هذا العبد الأسود قد جرأ عليك الناس . وانك ان قتلتـــه نكلت به من وراءه » فضربوه حتى غشي عليـه .

وفي مرات أخرى ، كان الخليفة يصغي الى هذه الشكايات ويندم على ما اجترحه أعوانه بعلمه أو بغير علمه ، ثم يعلن التوبة الى رعاياه ،ويؤكد لهم الوعد باقصاء أولئك الأعوان وإخلافهم في أعمالهم بمن يرضي المسلمين، ويرضي الله .

ثم يغلبه أولئك الأعوان على مشيئته ، فيبقيهم حيث كانوا ويملي لهم فيما تعودوه من الترف والنكاية ، وعلى رأسهم مروان بن الحكم . أبغض أولئك الأعوان الى المسلمين، حتى من أهل الخليفة المقربين .

وكان بعض الوفود يشكون ولاتهم، فاذا عادوا إلى بـلادهم تلقاهم أولئك الولاة بالأذى وقتلوا بعضهم ضرباً على مـلأ من الشاكين الذين ينتظرون الانصاف . فيعود المضروبون الى الشكوى ، وينصرهم اجلاء الصحابة عند الخليفة ، ويسالونه أن يولي عليهم غير واليهم المسيء اليهم . فاذا توجه الوالي الجديد الى مكانه ، اذا في الطريق رسول يحمل خطاباً للوالي المعزول ، يأمره فيه بقتل من يفد اليه من حاملي الشكوى وحاملي كتاب الولاية ، ويقره في مكانه !

حدث هذا مع وفد مصر ، واختلفت الأقاويل في تأويله من متهم للخليفة ، ومتهم لمنافسيه على الخلافة ، ومتهم لوفد الشكوى الذي عثر بالخطاب ، ومتهم لمروان بن الحكم ـ عنصر السوء في هذه المأساة كلها ـ وهو أولى الأقاويل بالترجيح والتصديق ، اذ كان ايسر شيء على مروان لو كان بريئاً من هذه المكيدة أن يكشف حقيقتها بسؤال الغلام حامل الخطاب ، وفي كشف هذه الحقيقة ابراء له ، وتعزيز لسلطان الخليفة ، وفضيحة لأعدائه ، وادحاض لحجة الفتنة ، ودعوة الاثارة والتحريض . ولكنه أهمل السؤال ، وقنع من تبرئة نفسه بقذف التهمة على متهميه .

* * *

وظل الخليفة والثوار يشتبكون ويتحاجزون . لا هم في حرب ، ولا هم في سلام ..

وكلما تحاجزوا بعد اشتباك منذر بالشر ، زاد الخليفة ضعفا ، وزاد الثوار ضراوة ، وزاد التوجس بينهم استفحالاً واتسع مع التوجس مجال السعاية والارجاف بين الفريقين حتى بلغ الكتاب أجله .

وتوسط عليّ بين الخليفة والثوار ،فاستمهلهم الخليفة ثلاثة أيام يرد فيها المظالم ويعزل العمال المكروهين .

فانتظر الثوار هذه الأيام الثلاثة تلبية لنصيحة عليّ . . ومنهم من

يسيء الظن ، ويرى ان الخليفة انما يستمهلهم في انتظار المدد الذي طلبه من الأمصار .

وانقضت الأيام الثلاثة على غير جدوى .

وتفاقمت الفتنة ، وأحاط الثائرون ببيت عثمان . لا يقنعون في هذه الكرة الا أن يعتزل ، أو يسلمهم مروان بن الحكم ، او يعزلوه عنوة .

وجاء في رواية « شداد بن أوس » ان عليّا رضي الله عنه ، خرج من منزله يومئذ معتماً بعمامة رسول الله متقلداً سيفه ، امامه الحسن وعبد الله بن عمر في نفر من المهاجرين والأنصار حتى حملوا على الناس وفرقوهم ، ثم دخلوا على الخليفة فسلم عليه عليّ . وقال بعد تمهيد وجيز : « .. لا ارى القوم الا قاتليك ، فمرنا فلنقاتل » فقال الخليفة : « انشد الله رجلا رأى لله حقاً ، وأقر أن لي عليه حقاً ، ان يهرق في سببي ملء محجمة من دم أو يهريق دمه فيّ » فاعاد عليّ القول ، فأعاد عليه هذا الجواب . ثم خرج من عنده الى المسجد ، وحضرت الصلاة فنادوه : « يا أبا الحسن . تقدم فصلّ بالناس » فقال : « لا أصلي بكم والامام محصور ، ولكني أصلي وحدي » ثم صلى وحده وانصرف الى منزله ، وترك ابنيه مع أبناء زمرة من الصحابة في حراسة دار الخليفة ، ليعلم الثوار انهم معتدون على كل ذي خطر في الاسلام أن وصلوا الى الخليفة باعتداء . عساهم ان علموا ذلك أن يتهيبوا المركب ، فلا ينزعوا بالشر غاية منزعه .

الا ان الثوار علموا انهم ماخوذون بالانتظـــار مغلوبون بالمطاولة فتسوروا الدار وولغوا في دم طهور لو هان على صاحبه أن تسفك الدماء في سبيله لعز عليهم أن يسفكوه .

* * *

وللافاضة في مقتل عثمان وعبرة هذا المقتل ، مكان غير هذا المكان ، وكتاب غير هذا الكتاب .

فانما نحن في صـدد الموقف الذي وقفه عليٌ من هذه الجريمة ، ومـا ينم عليه هذا الموقف من خلقه ورأيه وسريرته وجهره . وانما يعنينا هنا أن نسأل : أكان عليه وزر في هذه الجريمة ؟. أكان في مقدوره عمل صالح يعمله لانقاذ عثمان من هذا المصير ؟ .

ونحن لا نسأل هذا السؤال لنرجع في جوابه الى جـــدل المجادلين وأقاصيص المادحين والقادحين . فقد سال في الخلاف على هـذا السؤال دم غزير ومداد كثير ، وليس علينا نحن أن نزيد قطرة أو قطرات على هذا البحر المسجور الذي لا ريّ فيه .

ليس علينا هذا ، لأننا نستطيع أن نعبره الى حقيقة ماثلة لمن يشاء أن يراها ، وفيهـــا الغنى ــ ولو بعض الغنى ــ عن الاسهاب في السؤال والجواب .

فالحقيقة التي لا يطول فيها الريب ، ان عليّا رضي الله عنه لم يكن

أقدر على اجتناب هذا المصير من معاوية أو من عثمان نفسه ، لو شاء عثمان أن يستمع الى بعض الناصحين اليه

فقد كان معاوية والياً عزيزاً ، له جند يرسله الى الخليفة فيحميه في الشدة اللازمة وان أباه ، وكان لمعاوية قبول عند عثمان لم يكن لعليٍّ ولا لأحد من خلصائه ، وكان هو أقمن أن يميل بعثمان الى الرضا بالحراسة أو الرضا بالرحلة الى مكة أو الشام ، لو أرادَ .

وكان في وسع عثمان أن يرحل الى مكة ، وهيَ آمن له من المدينة ، أو يرحل الى الشام وقد كانت مفتوحة له قبل أن تغلقها الفتنة ويمرد الثوار في العصيان .

أما عليّ فقد كان موقعه أصعب موقف يتخيله العقل في تلك الأزمة المحفوفة بالمصاعب من كل جانب .

كان عليه أن يكبح الفرس عن الجماح ، وكان عليه أن يرفع العقبات والحواجز من طريق الفرس . كلما حيل بينها وبين الانطلاق .

كان ناقداً لسياسة عثمان وبطانته التي حجبته عن قلوب رعاياه . ناصحاً للخليفة باقصاء تلك البطانة ، وتبديل السياسة التي تزينها له وتغريه باتباعها وصم الآذان عن الناصحين له بالاقلاع عنها .

وكان مع هذا أول من يطالب بالغوث ، كلما هجم الثوار على تلك

البطانة ، وهموا باقصائها عنوة من جوار الخليفة .

كان الثوار يحسبونه أول مسئول عن السعي في الاصلاح ، وكان الخليفة يحسبه أول مسئول عن تهدئة الحال وكف أيدي الثوار .

ولم يكن في العالم الاسلامي كله رجل آخر يعاني مثل هذه المعضلة التي تلقاه من جانبيه كلما حاول الخلاص منها ، ولا خلاص !

وضاعف هذا الحرج الشديد الذي كان يلقـــاه في كل خطوة من خطواته ، انه لم يكن بموضع الحظوة والقبول عند الخليفة حيثما وجب الاصغاء الى الرأي والعمل بالمشورة . وانما كان مروان بن الحكم موضع الحظوة الأول بين المقربين اليه .. لا ينجو من احدى جناياته التي كان يجنيها على الحكومة والرعية حتى يعود الى الخليفة فيوقع في روعه ان عليّاً واخوانه من جلة الصحابة هم الساعون بين الناس بالكيد له وتأليب الثائرين عليه ، وانه لا أمان له الا أن يوقع بهم ويعرض عنهم . ويلتمس الأمان عند عشيرته وأقربائه ، ومن هم أحق الناس بسلطانه وأصدقهم رغبة في دوامه .

ففي المؤتمر الذي جمعـــه الخليفة للتشاور في اصلاح الأمر وقمع الفتنة ، ولم يكن عليٌّ مدعواً ولا منظوراً اليه بعين الثقة والمودة . بل كان المدعوون الى المؤتمر من اعدائه والكارهين لنصحة. وهم معاوية وعمرو بن العاص وعبدالله بن أبي سرح وعبدالله بن عامر وسعيد بن العاص ، وهم في جملتهم أولئك الولاة الذين شكاهم عليّ وجمهرة الصحابـــة ،

وبرمت بهم صدور المهاجرين والأنصار .

قال لهم عثمان : « ان لكل امرىء وزراء ونصحاء ، وانكم وزرائي ونصحائي وأهل ثقتي . وقد صنع الناس ما قد رأيتم ، وطلبوا اليّ أن أعزل عمالي ، وأن أرجع عن جميع ما يكرهون الي ما يحبون . فاجتهدوا رأيكم وأشيروا عليّ » .

قال معاوية : « أرى لك يا أمير المؤمنين أن ترد عمالك على الكفاية لما قبلهم ، وأنا ضامن لك ما قبلي » .

رأي رجل يريد أن يحتفظ بولايته ، ولا يريد أن يغضب أحداً من أصحاب الولايات في غير مصره .

وقال عبد الله بن عامر : « رأيي لك يا أمير المؤمنين أن تامرهم بجهاد يشغلهم عنك ، وأن تجمهرهم في المغازي حتى يدلوا لك . فلا تكون همة أحدهم الا نفسه . »

رأي رجل يريد أن يشغل الناس عن الشكوى ولا يريد أن يزيلها ، ثم هو لا يبالي أن يخلق جهاداً تسفك فيه الدماء في غير جهاد مطلوب .

وقال عبد الله بن سعد : « أرى يا أمير المؤمنين ان الناس أهل طمع ، فاعطهم من هذا المال تعطف عليك قلوبهم » .

رأي رجل يشتري الرضا بالرشوة ، ويستبقي ما في يديه منها .

وقال عمرو بن العاص ، وهو بين السخط على ولاية فاتها والطمع في ولاية يرجوها : « أرى انك قد ركبت الناس بما يكرهون ، فاعتزم أن تعدل . فان أبيت ، فاعتزم أن تعتزل . فان أبيت ، فاعتزم عزماً وامض قدماً » .

رأي رجل عينه على الخليفة وعينه على الثوار، ولهذا بقي حتى تفرق المجتمعون . ثم قال للخليفة حيث لا يسمعه أحد غيره : « والله يا امير المؤمنين لأنت أعز عليّ من ذلك . ولكني قد علمت ان سيبلغ الناس قول كل رجل منا، فأردت أن يبلغهم قولي فيثقوا بي . فاقود إليك خيراً وأدفع عنك شراً ... »

***

وكان هؤلاء هم الوزراء والنصحاء وأهل الثقة عند عثمان ، ومن ورائهم مروان بن الحكم يلازمه ويكفل لهم ان يحجب النصحاء عنه ، وفي مقدمتهم عليّ واخوانه . ثم تفرّق المؤتمرون وقد رد عثمان كل عامل إلى عمله ، وأمره بالتضييق على من قبله ..

فكانت حيلة عليّ في تلك المعضلة العصيبة جد قليلة ، وكان الحول الذي في يديه أقل من الحيلة .

الا انه مع هذا قد صنع غاية ما يصنعه رجل معلق بالنقيضين، معصوب بالتبعتين ، مسئول عن الخليفة أمام الثوار ومسئول عن الثوار أمام الخليفة ..

جاءه الثوار مرة من مصر خاصة ، يتخطون الخليفة اليه ويعرضون الخلافة عليـــه . فلقيهم أسوأ لقاء ، وأنذرهم لئن عادوا اليها ليكونن جزاؤهم عنده وعند الخليفة القـــائم ، جزاء العصاة المفسدين في الأرض .

وجاءوه مرة أخرى وحجتهم ناهضة ، ودليل التهمة التي يتهمون بها بطانة عثمان في أيديهم . جاءوه بالخطاب الذي وجدوه في طريق مصر مع غلام عثمان ، يأمر عامله بقتلهم بعد أن وعدهم خيراً وأجابهم الى تولية العامل الذي يرضيهم . فلم تخدعه حجتهم الناهضة ، ولم يشأ أن يملي لهم في ثورتهم واحتجاجهم من جراء ذلك الخطاب المشكوك فيه . وجعلهم متهمين مسئولين بعد أن كانوا متهمين سائلين ، فقال لهم : « ومـا الذي جمعكم في طريق واحد ، وقد خرجتم من المدينة متفرقين كل منكم الى وجهة ؟ » .

***

وكانت حيرة عليّ بين التقريب والابعاد، اشد من حيرته بين الخليفة والثوار . فكان يؤمر تارة بمبارحة المدينة ليكف النـــاس عن الهتاف باسمه ، ويستدعى اليها تارة ليردع الناس عن مهاجمة الخليفة . فلما تكرر ذلك ، قال لابن عباس الذي حمل اليـه رسالة عثمان بالخروج الى ماله في ينبع : « يا عباس. ما يريد عثمان الا أن يجعلني جملاً ناضحـــاً بالغرب ــاي الدلو ــ أقبل وادبر . بعث اليّ أن أخرج ، ثم بعث الي أن اقدم ،

ثم هو الآن يبعث اليّ أن أخرج . والله لقد دفعت عنه حتى خشيت أن أكون آثماً » .

ثم بلغ السيل الزبى ، كما قال عثمان رضي الله عنـــه ، فكتب علي يذكر له ذلك ويقول : «ان أمر الناس ارتفع في شاني فوق قدره . وزعموا انهم لا يرجعون دون دمي ، وطمع فيّ من لا يدفع عن نفسه .

فان كنت ماكولاً فكن خير آكل والا فادركني ولما امزق

فعاد علي ، وجهد في انقاذ الخليفة جهده ، ولكنه كان يعالج داء استعصى دواؤه وابتلي به أطباؤه . فكلهم يريد تغييراً ياتي من قبل الغيب أو ياتي من قبل الآخرين ، ولا يغير شيئاً من عمله أو مستطاعه . ولعـــل الخليفة لو شرع في التغيير المرجو يومئذ لما أجدى عليه عظيم جدوى ، لفوات أوانه وانطلاق الفتنة من أعنتها ، وامتناع التوفيق والصفاء بعد ما وقر في النفوس ولغطت به الأفواه .

وعد الخليفة وعده الأخير . ليصلحن الأحوال ويبدلن العمال .

وأحاطت به بطانته كدأبها في اثر كل وعد من هذه الوعود ، تنهاه أن ينجزه وتخيفه من طمع الناس فيه ، ان هو أنجز ما وعدهم حين توعدوه .

وكانت المرأة أصدق نظر من الرجال في هذه الغاشية التي تضل فيها العقول . فاشارت عليه امرأته السيدة نائلة باسترضاء عليّ والاعراض

عن هذه البطانة ، ولم يكن أيسر على بطانته من اقناعه بضعف هذا الرأي بعد سماعه من امرأة ضعيفة . فكان مروان يقول له : « والله لإقامة على خطيئة تستغفر الله منها أجمل من توبة تخوف عليها » .

وكان هو يأذن له أن يخرج ليكلم النـــاس ، فلا يكلمهم الا بالزجر والاصرار . كما قال لهم يوماً : « مـــا شأنكم قد اجتمعتم كأنكم جئتم لنهب . شاهت الوجوه . جئتم تريدون أن تنزعوا ملكنا . ارجعوا إلى منازلـكم ، فانا والله ما نحن مغلوبين على ما في أيدينا » .

اذن بطلت الروية ، ولم يبق الا لحظة طيش لا يدرى كيف تبدأ ، ولا يؤتى لأحد اذا هي بدأت أن يقف دون منتهاها .

* * *

هجم الثوار على باب الخليفة ، فمنعهم الحسن بن عليّ وابن الزبير ومحمد ابن طلحة ومروان بن الحكم وسعيد بن العاص وطائفة من أبنـاء الصحابة .

واجتلدوا فمنعهم عثمان ، وقال لهم : « انتم في حلّ من نصرتي » وفتح الباب ليمنع الجلاد حوله . ثم قام رجل من أسلم يناشد عثمان ان يعتزل ، فرماه كثير بن الصلت الكندي بسهم فقتله ، فجنّ جنون الثوار يطلبون القاتل من عثمان ، وعثمان يأبى أن يسلمه ويقول لهم : « لم أكن لأقتل رجلاً نصرني وأنـــتم تريدون قتلي » وعزّ على الثوار أن يدخلوا من

الباب الذي كان قد أغلق بعد فتحـــه ، فاقتحموا الدار من الدور التي حولها . واقدموا على فعلتهم النكراء بعد احجام كثير .

لو لم تقع الواقعة في هذه اللحظة الطائشة ، لوقعت في لحظة غيرها لا يدرى كيف تبدأ هي الأخرى . فانما هي بادرة واحدة من رجل واحد تسوق وراءها كل مجتمع حول الدار من المهاجمين أو المدافعين ، ولا اكثر من البوادر بين ثوار لا يجمعهم رأي ، ومدافعين لا يضبطهم عنان ..

ونقل الخبر الى المسجد ، وفيه عليّ جالس في نحو عشرة من المصلين، فراعه منظر القادم وسأله : « ويحك ما وراءك ؟ » قال : « والله قد فرغ من الرجل » فصاح به : « تبا لكم آخر الدهر . » وأسرع الى دار الخليفة المقتول . فلطم الحسن ، وضرب الحسين ، وشتم محمداً بن طلحة وعبدالله ابن الزبير وجعل يسأل ولديه : « كيف قتل أمـــير المؤمنين وأنتما على الباب ؟ » فأجاب طلحة : « لا تضرب يا أبا الحسن ولا تشتم ولا تلعن، لو دفع مروان ما قتل » .

**

قال سيف بن عمر عن جماعة من شيوخـــه : « بقيت المدينة خمسة أيام بعد مقتل عثمان ، وأميرها الغافقي بن حرب ، يلتمسون من يجيبهم الى القيام بالأمر، والمصريون يلحون على عليّ وهو يهرب الى الحيطان [1] ،

---

١ ـ البساتين .

ويطلب الكوفيون الزبير فلا يجدونه ، والبصريون يطلبون طلحة فلا يجيبهم ، فقالوا فيما بينهم : لا نولي أحداً من هؤلاء الثلاثة . فمضوا الى سعد بن ابي وقاص فقالوا : انك من أهل الشورى . فلم يقبل منهم ، ثم راحوا الى ابن عمر فابى عليهم ، فحاروا في أمرهم . ثم قالوا : ان نحن رجعنا الى أمصارنا بقتل عثمان من غير إمارة اختلف الناس في أمرهم ولم نسلم ، فرجعوا الى علي فالحوا عليه ، وأخذ الأشتر بيده فبايعه وبايعه الناس. وكلهم يقول : لا يصلح لها الا علي. فلما كان يوم الجمعة وصعد على المنبر ، بايعه من لم يبايعه بالأمس وكان أول من بايعه طلحة بيده الشلاء ، فقال قائل : « انا لله وانا اليه راجعون » ثم الزبير ، ثم قال الزبير « انما بايعت عليّاً واللج على عنقي والسلام . »

وهذا الخبر على وجازته ، قد حصر لنا أسماء جميع المرشحين للخلافة بالمدينة عند مقتل عثمان . وربما كان أشدهم طلباً لها طلحة والزبير ، اللذان أعلنا الحرب على عليّ بعد ذلك . فقد كانا يمهدان لها في حياة عثمان ، ويحسبان أن قريشاً قد أجمعت أمرها ألا يتولاها هاشمي،وأن علياً وشيك أن يذاد عنها بعد عثمان كما ذيد عنها من قبله ، وكانت السيدة عائشة تؤثر أن تئول الخلافة الى واحد من هذين . أو الى عبد الله ابن الزبير ، لأن طلحة من قبيلة تيم والزبير زوج أختها أسماء، وفي تاييد السيدة عائشة لواحد منهم مدعاة أمل كبير في النجاح .

على أن الرأي هنا لم يكن رأي قريش ، ولا رأي بني هاشم . فلو ان

عثمان مات حتف أنفه ، ولم يذهب ضحية هـــذه الثورة لجاز أن تجتمع قريش فتعقد البيعة لخليفة غير علي بن أبي طالب ، وجاز أن يختلف بنو هاشم . فلا يجتمع لهم رأي على رجـــل من رجالهم الثلاثة المرشحين للخلافة ، وهم : عقيل ، وعلي ، وابن عباس .

***

ولكنها الثورة الاجتماعية التي تنشد رجلها دون غيره ولا محيد لها عنه . فان ترددت أياماً ، فذاك هو التردد العارض الذي يرد على الخاطر لا محالة ، قبل التوافق على رأي جازم . ثم لا معـدل للثورة عن الرجل الذي تتجه اليه وحده على الرغم منها ..

فطلحة والزبير ، كانا يشبهان عثمان في كثير مما أخذه عليه المتحرجون في الدين ، وتمرد له الفقراء المحرومون . كانا يخوضان في المال ، ولا يفهمان الزهد والعلم على سنّة الناقمين المتزمتين ، فاذا طلب الثائرون خليفة على شرطهم ووفاق رجائهم . فما هم بواجديه في غير عليّ بن أبي طالب ، وقد قال بحق : « ان العامـــة لم تبايعني لسلطان غالب ولا لعرض حاضر » ولو شاء لقال عن الخاصة الذين لا يطمعون في الخلافة مقالته عن العامة في انقيادهم اليه بغير رهبة ولا رغبة . فقد كان أولئك الخاصة جميعاً على رأي العامة في حكومة عثمان وبطانته ، وان أخفى بعضهم لومه . ولم يذهب بعضهـــم في اللوم مذهب الثوار في النزق وسفك الدماء .

ونعتقد كما أسلفنا أن هذه الحقيقة هي أولى الحقائق بالتوكيد والاستحضار ، كلما عرض أمر من أمور الخلاف والتردد في خلافة علي رضي الله عنه .فاذا هي فهمت على وجهها ، فكل ما عداها مفهوم البواطن والظواهر منسوق الموارد والمصادر . واذا هي لم تفهم على الوجه الأمثل أو تركت جانبا ، وبحث الباحثون عن العلل والعواقب في غيرها فالعهد كله غامض مجهول ، والموازين كلها مختلفة منقوصة سواء في تقدير الرجال أو تقدير الأعمال ، وجاز حينئذ أن يرمى علي بالخطأ . ولا خطأ عنده يصححه غيره في موضعه ، وانما هو حكم الموقف الذي لا محيد عنه . وجاز كذلك أن ينحل خصومه فضل الصواب ولا صواب عندهم ، لأنهم مضطرون الى ورود هذا المورد . فكروا فيه أو طرقوه اعتسافاً بغير تفكير .

فلم تكن المسالة خلافاً بين علي ومعاوية على شي واحد ، ينحسم فيه النزاع بانتصار هذا او ذاك .

ولكنها كانت خلافاً بين نظامين متقابلين متنافسين : احدهما يتمرد ولا يستقر ، والآخر يقبل الحكومة كما استجدت ويميل فيها الى البقاء والاستقرار .

أو هي كانت صراعاً بين الخلافة الدينية كما تمثلت في علي بن أبي طالب ، والدولة الدنيوية كما تمثلت في معاوية بن أبي سفيان .

***

وليس موضع الحسم فيها أن ينتصر عليّ.. فيحكم في مكان معاوية ، أو ينتصر معاوية فيحكم في مكان عليّ ، بل موضع الحسم فيهـــا مبادىء الحكم كيف تكون اذا تغلب واحد منهما على خصمه ؟ آتكون مبادىء الخلافة الدينية أو مبادىء الدولة الدنيويـــة ؟. أتكون مبادىء الورع والزهادة أو مبادىء الحياة على أساس الثروة الجديـــدة ، كما توزعت بين الأمصار وتفرقت بين السراة والاجناد والاعوان ؟

فلو أن علياً ملك الشام ومصر والعراق والحجاز، وجرى في سياستها على سنّة أصحابه من الحفاظ والقراء ومنكري البذخ والاسراف لبقيت المشكلة حيث كانت ، ولم تغن هزيمة معاوية الا ريثما يتجرد للدولة منازع آخر يحاول الغلبة من حيث فشل .

ولو ان معاوية ملك المدينة الى جانب ملكه ، وجرى في سياستها على سنّة الحفاظ والقراء لما ارضاهم ، ولا انقاد له احد من اشياعه .

فالحسم حق الحسم هنا ، انما تغلب مبادىء الملك او مبادىء الخلافة.. ولا حيلة لعليّ ولا لمعاوية في علاج الأمر على غير هذا الوجه ، لو جهـد له جهد الطاقة ..

وقد كان الموقف بين الخلافة والملك ملتبساً متشابكاً في عهد عثمان : كان نصف ملك ونصف خلافة ، او كان نصف زعامة دينية ونصف امارة دنيوية .

فوجب اولاً ان يتضح الموقف بينهما ، وان يزول الالتباس عن فلق صريح .

ووجب وقد زال الالتباس ، وتقابل الضدان اللذان لا يتفقان ، ان يبلغ الخلاف مداه . ولن يزال قائماً حتى تكتب الغلبة لمبدأ من المبدأين وحكم من الحكمين، وليس لعليّ أو معاوية على التخصيص .

هذه هي العلّة الكبرى التي تنطوي فيها جميع العلل الظاهرة .

وخليق بكل علّة أخرى أن تكون تعلّة موضوعة يستر صاحبها غير ما يبطن ، أو ينخدع في زعمه وهو غافل عن معناه .

* * *

خذ لذلك مثلاً علة طلحة وأصحابه الذين ثاروا على عليّ ليطلبوه بدم عثمان ، وهم لم يدفعوا عنه في حياته بعض ما دفع عليّ عنه . وقد كان عثمان كثيراً ما يقول : « ويلي من طلحة . أعطيته كذا وكذا ذهبا وهو يروم دمي . اللهم لا تمتعه به ولقه عواقب بغيه » .

وساء ظن الناس بنقمة طلحة على عثمان حتى حدث بعضهم أنه رآه يوم مقتله يرمي الدار ، ويقود بعض الثائرين الى الدور المجاورة ليهبطوا منها الى دار عثمان ، وهو حديث يفتقر الى السند الوثيق ، ولكنه ينم على ظن الناس بصداقة طلحة للخليفة المقتول .

وخذ لذلك مثلاً حجة معاوية حين علل ثورته باتهام علي في دم عثمان، وعلل اتهامــه لعليٍّ بتقصيره في القود من الثائرين . وهم ألوف يحملون السلاح ، وهو لم يسكن بعد الى سلطان يعينه على القود من هؤلاء الألوف المسلحين . فماذا صنع معاوية بقاتلي عثمان حين صار الملك اليـــه ؟ ووجب عليه أن ينفذ العقاب الذي من أجله ثار واستباح القتال ؟ انه اتبع علياً فيما صنع ، وأبى أن يذكر الثأر المقيم المقعد، وقد ذكروه به وألحوا في تذكيره . ولقد كان أول ما سمعه يوم زار المدينة ودخل بيت عثمان صيحة عائشة إبنته وهي تبكي : « وا أبتاه » فلم تزده الصيحة المثيرة الا إصراراً على الاغضاء والاعفاء . وقال لها يعزيها : « يا ابنة أخي . ان الناس أعطونا طاعة وأعطيناهم أماناً ، وأظهرنا لهم حلماً تحته غضب ، وأظهروا لنا طاعة تحتها حقد ، ومع كل انسان سيفه وهو يرى مكان أنصاره . فان نكثنا بهم نكثوا بنـــا ، ولا ندري أعلينا تكون أم لنا ولئن تكوني بنت عم أمير المؤمنين خيراً من أن تكوني امرأة من عرض المسلمين . »

***

ولو كانت الثورة كلها من أجل عثمان لما انتهت بهذا التسليم الهين . ولكان عذر عليّ في بداية المحنة أعظم حجة ، وأحق بالقبول .

أو خذ لذلك مثلا علة عمرو بن العاص ، وقد كان أول الناصحين لعثمان بالاعتزال ، بل كان يخطب عثمان ليسترضي الناس ، وعمرو يصيح

به من صفوف المسجد : « اتق الله يا عثمان، فانك قـــد ركبت أموراً وركبناها معك. فتب الى الله تتب . » ثم ترك عثمان في المدينة بين المؤتمرين به ومضى الى فلسطين ، وسُمِـــع وهو يقول : « والله اني كنت لألقى الراعي فأحرضه على عثمان » .

فكل علّة للثورة على خلافة علي ، فهي تعلّل موضوع ينخدع به قائله أو يخدع به غيره . إلا تلك العلّة التي طوت فيهـا جميع العلل ظاهرها وخافيها وصريحها ومكذوبها • وهي الخلاف بين مبادىء الخلافة الدينية ومبادىء الدولة الدنيوية ، وضرورة الفصل بين هاتـين الخطتين • وان كان في ظاهره فصلاً بين رجلين .

فلما بويع بالخلافة ، كانت هذه البيعة ايذاناً بانقسام الحلقة بين الندين للصراع الاخير ، أو كانت ايذاناً باصطفاف المتسابقين الى غاية لا بد من بلوغها . ولن تخطر على البال غاية لهذا السباق المحتوم غير انتهاء الخلافة أو انتهاء الملك على النحو الذي تهيـأت له عناصر النظام الاجتماعي الجديد .

فاما انتهاء الملك في بدايته ، فقـد كان بعيداً ــ بل كان عسيراً جداً في تلك الآونة ــ كما يعسر إنطفاء النار وهي تهب بالاشتعال ..

وأما انتهاء الخلافة فهو الذي كان ، وهو الذي كان منظوراً ان يكون ، ولم يكن غيره بمنظور . فمن الفضول لوم عليٍّ على شيء

من الأشياء التي أفضت الى هـذه الخاتمـة ، وهي محتومة ليس عنها محيد . .

إذ لم يكن طبيعياً ان يصمد الناس على سنة النبوة أكثر من جيـــل واحد ، تثوب بعده الطبائع إلى فطرتها من نشأة جلال الخلافة النبوية ، وهي في إبان النضال والحمية الدينية ، فتنسى المطامع وتسهو عن الحزازات وتستعذب الألم والفداء إلى مدى الطاقة الانسانية ، ولكنها تبلـغ مدى الطاقة الانسانية بعد حين ، وتفتر عن النهوض من قمة الى قمة . فتركن آخر الأمر إلى الأرض السواء حيث لا حافز ولا مستنهض ، إلا مجاراة الطبيعة في مجاريها التي لا تشق عليها ، وان المصلحين ليرضون غاية الرضا اذا هي حفظت من اصلاحهم عند ذلك وازعاً يهديها بعد ضلالة عميـاء ، ويردعها بعد جماح مريد ، ويكفكف من غلوائها ما كان من قبل منطلقاً بغير عنان . .

وقد نظر النبي عليه السلام بعين الغيب الى هذا المصير فقال : «الخلافة ثلاثون عاماً ثم يكون بعد ذلك الملك » . وأنبـأ بانقسام الفرق وتشعب الاهواء ، وكأنما كان ينظر إلى ذلك بعينيه صلوات الله عليه .

واتبع عليّ من اليوم الأول في خلافته أحسن السياسات التي كان له أن يتبعها ، فلا نعرف سياسة أخرى أشار بها ناقدوه أو مؤرخوه ثم أقاموا الدليل على انها خير من سياسته في صدق الرأي وأمان العاقبـــة ، أو انها كانت كفيلة باجتناب المآزق التي ساقته الحوادث اليها .

فمن اللحظة الأولى ، أخذ في تجنيد قوى الخلافة الدينية التي لا قوة له بغيرها ..

فعزل الولاة الذين استباحوا الغنائم المحظورة ، وتمرغوا بالدنيا ، وطمعوا وأطمعوا رعاياهم في بيت مال المسلمين ، وأثاروا على عثمان سخط السواد وسخط الفقهاء المتحرجين والحفاظ الغيورين على فضائل الدين .

ورد القطائع التي وزعتها بطانة عثمان بين المقربين وذوي الرحم ، فصرفتها عن وجوهها التي جعلت لها من اصلاح المرافق واغاثة المفتقرين اليها على شرعة الانصاف والمساواة .

ورجع الى خطة أبي بكر وعمر في تجنيب الصحابة الطامحين الى الامارة فتنة الولايات ، مخافة عليهم من غوايتها وابعاداً لهم من دسائس الشيع والعصبيات . فلما طالبه طلحة والزبير بولاية العراق واليمن ، قال لهما : « بل تبقيان معي لآنس بكما » وسأل ابن عباس : « ما ترى ؟ » فأشار بتولية الزبير البصرة وتولية طلحة الكوفة . قال علي : « ويحك . . ان العراقين بهما الرجال والأموال . ومتى تملكا رقاب الناس يستميلان السفيه بالطمع ، ويضربان الضعيف بالبلاء ، ويقويان على القوي بالسلطان ، ولو كنت مستعملاً أحداً لضره أو نفعه لاستعملت معاوية على الشام ، ولولا ما ظهر من حرصهما على الولاية لكان لي فيهما رأي » .

***

نعم ، ان هذه السياسة أغضبت منافسيه وطالبي المنفعة الدنيوية على يديه . ولكن السياسة الأخرى كانت تغضب أنصاره ولا تضمن رضا المنافسين ودوامهم على الرضا والوفاق بينهم في تاييده . وكانت تخالف عقيدته التي يدين بها نفسه وأقرب الناس اليه ، وتخالف وعده وعقيدة الناس فيه . ولكن يكون مالكاً غالباً بسياسة الملك على كل حال ، فان لم يكن خليفة فما هو بشيء ، وان كان خليفة وملكاً فهي خطة عثمان التي لم تستقم قط على وجه من وجهيها ومصيرها معروف ، وان كان خليفة ولا اختيار له في ذلك فكل ما صنع فهو الحكمة كاحسن ما تراض له الحكمة ، وهو السداد كأقرب ما يتاح له السداد .

وعلم ان قريشاً لا ينصرونه ، فنقل العاصمة من المدينة الى الكوفة . لأن قريشاً كانوا هاشميين وهم لا يتفقون على بيعته ، وقد تركه أقربهم اليه ورحل الى معاوية طمعاً في رفده، أو كانوا أمويين وهم حزب معاوية وأهل عشيرته وبيته ، أو من تيم وهم حزب طلحة ، أو من عدي وهم يؤثرون عبدالله بن عمر بن الخطاب ، أو من قبائل أخرى ، وهم كما قال : « قد هربوا الى الاثرة » .. فاذا أقام بينهم فهو مقيم بين أناس لا ينقطع لهم طلب ولا يُضمن لهم ولاء .

ولم تمض أيام معدودة على مبايعة الخليفة الجديد حتى انتظمت صفوف الحجاز كله له أو عليه . فكان معه جميع الشاكين لأسباب دينية أو دنيوية ، وكان عليه جميع الولاة الذين انتفعوا في عهد عثمان ، وجميع

الطامعين في الانتفاع بالولاية والأموال العامة . وحالت الخلافة الجديدة بينهم وبين ما طمعوا فيه .

وعلى رأس هؤلاء طلحة والزبير .

***

فحشدوا جموعهم إلى البصرة ، وصحبتهم السيدة عائشة لأنها كانت ترغب في خلافة طلحة . لقيها ابن عباس على مقربة من المدينة وهو أمير على الحج من قبل عثمان ، ولما يزل قائماً بالخلافة ، فقالت له : « يا ابن عباس . أنشدك الله فانك قد أعطيت لساناً ازعيلا – أي ماضيا – أن تخذل عن هذا الرجل – تعني عثمان – وأن تشكك فيه الناس فقد بانت لهم بصائرهم وأنهجت ورفعت لهم المنار ، وتحلبوا من البلدان لأمر قد جم . وقد رأيت طلحة بن عبيدالله قد اتخذ على بيوت الأموال والخزائن مفاتيح . فان يل يَسِر بسيرة ابن عمه أبي بكر رضي الله عنه » فأجابها ابن عباس : « يا أمّه ! لو حدث ما فزع الناس الا الى صاحبنا » أي عليّ فقالت : « أيها عنك .. اني لست أريد مكابرتك ولا مجادلتك » .

فلما بويع عليّ في المدينة، لم تكن من أنصاره ولا مع الباقين على الحيدة بينه وبين خصومه. ولعلها لم تنسَ بعد نصيحته للنبي عليه السلام في مسألة الافك التي قيل انه أشار فيها بتطليقها، فخرجت الى البصرة مع المطالبين بثأر عثمان ، وكانت هنالك وقعة الجمل التي سُمّيت بهذا الاسم لاحتدام

القتال فيها حول جملها وهودجهـا . فانتصر علي ، وقتل الزبير ، ومات طلحة بجرح أصابه في المعركة، وحسم القتـــال بالصلح بين الفريقين في الحجاز والعراق .

على أن هذا النصر العاجل ، لم يخل من آفة تكدره وتنذر بالمخاوف التي يوشك أن يلقاها علي في حربه لخصومـه الباقين بعد موت طلحة والزبير . وأقواهم معاوية بن أبي سفيان صاحب الشام .

فقد كشفت وقعة الجمل عن مصاعب القيـادة في جيش من المتمردين والمتذمرين . فانهم يستحمسون في عقيدتهم ، وهي فضيلة من فضـــائل الجيوش المقاتلة ، ولكنهم من جراء هذه الحماسة نفسها عرضة للعنـــاد والتمادي في اللدد وإعجال قائدهم عن انعـــام الروية وانتظار الفرص المؤاتية . .

فقد كان عليّ يميل ــ كدأبه ــ إلى مفاتحة الخارجين عليه في المهادنة أو المصالحة ، وكان معه جماعة السبئية ــ أتبـاع عبد الله بن سبأ ــ وهم أخلص الناس له وأغيرهم عليه ، ولكنهم لفرط غيرتهم ولددهم في عداوتهم لم يقنعوا بما دون القضـــاء على خصومه ، ولم يقبلوا التوسط في الصلح دون الغلبة التي لا هوادة فيها . فدهموا القوم وأوقدوا جذوة الحرب ، قبل أن يفرغ عليّ من حديث المهادنة والتقريب بينه و بين أصدقائه الذين خرجوا عليه .

وكانت هذه أولى العثرات الكبــــار التي أعثرته بها حماسة المتمردين

والمتذمرين في جيشه ، ولم تزل تتعاقب وتتفاقم عليـــه حتى مني بالعثرة التي لا تقال ..

وكان ذلك في وقعة صفين .

فانه نظر بعد غلبته في العراق ، فلم يجد أمامه خصماً يقف في طريق الخلافة الا جيش معاوية بالشام، فعمد معه الى خطته التي جرى عليها مع خصومه كافة حيث كانوا وكانت منزلتهم من الجاه والقوة ، ونعني بها خطة المسالمة والبدء بالاقناع . فطالت المراسلة منه الى معاوية ، ومن معاوية اليه ، وفي مثل واحد منها، ما يغني عن كثير .

كتب الى معاوية بعد وقعـة الجمل ، وقد سبقته كتب كثيرة من المدينة :

« سلام عليك . أما بعد ، فان بيعتي بالمدينة لزمتك وأنت بالشام ، لأنه بايعني الذين بايعوا أبا بكر وعثمان على ما بويعوا عليه . فلم يكن للشاهد أن يختار ، ولا للغائب أن يرد ، وانما الشورى للمهاجرين والأنصار ، فاذا اجتمعوا على رجـــل وسمّوه اماماً كان ذلك لله رضى ، وان خرج عن أمرهم ردوه إلى ما خرج عنه ، فان أبى قاتلوه على إتباعه غير سبيل المؤمنين ، وولاه الله ما تولى ، وأصلاه جهنم وساءت مصيراً . وان طلحة والزبير بايعـــاني ثم نقضا بيعتهما ، وكان نقضهما كردهما ، فجاهدتهما بعد ما أعذرت اليهما ، حتى جاء الحق وظهر أمر الله ، وهم كارهون . فادخل فيما دخل فيه المسلمون ، فان أحب الأمور اليّ قبولك

العافية ، وقد أكثرت في قتلة عثمان ، فان رجعت عن رأيك وخلافك ودخلت فيا دخل فيـــه المسلمون . ثم حاكمت القوم إلى حملتك و اياهم على كتاب الله . وأما تلك التي تريدها ـ يعني الخلافة ـ فهي خدعـــة الصبي عن اللبن . ولعمري لئن نظرت بعقلك دون هواك لتجدنني أبرأ قريش من دم عثمان ، واعلم انك من الطلقاء [1] الذين لا تحل لهم الخلافة ولا يدخلون في الشورى و قد بعثت اليك وإلى من قبلك جرير بن عبد الله، وهو من أهل الايمان والهجرة . فبايعه ، ولا قوة الا بالله »

فرد عليه معاوية بما يلي :

« سلام عليك. أما بعد ، فلعمري لو بايعك الذين ذكرت وأنت بريء من دم عثمان ، لكنت كأبي بكر وعمر وعثمان . ولكنك أغريت بـــدم عثمان وخذلت الانصار، فأطاعك الجاهل وقوي بك الضعيف . وقد أبى أهل الشام الا قتالك حتى تدفع اليهم قتلة عثمان . فـــان فعلت كانت شورى بين المسلمين . وانمـــا كان الحجازيون هم الحكام على الناس والحق فيهم ، فلما فارقوه كان الحكام على الناس أهل الشام ، ولعمري ما حجتك على أهل الشام كحجّتك على طلحة والزبير ، ان كانا بايعاك فلم أبايعك أنا . فأمّا فضلك في الاسلام وقرابتك من رسول الله صلّى الله عليه وسلم فلست أدفعه » .

* * *

---

١ ـ اطلق معاوية وابوه من الاسر يوم فتح مكة .

ومن رد معاوية هذا ، تبدو النية الواضحة في فتح أبواب الخلاف واحداً بعد واحد . كلما أغلق باب منها بقي من ورائه باب مفتوح ، لا ينتهي الخلاف باغلاقه .

فتسليم قتلة عثمان لا يكفي ،لأن علياً نفسه متهم بالاغراء والتخذيل، وبراءة عليّ من هذه التهمة لا تكفي لأن المرجع بعد ذلك إلى الشورى والنظر في البيعة من جديد .

وشورى الحجازيين والعراقيين لا تكفي لأن الحق قد خرج منهم إلى أهل الشام ، وهم الحكام على الناس . لأنهم يحكمون لمعاوية ولا يحكمون لغيره .

ومن ثم، بطلت الحجج والرسائل كما تبطل كل حجة وكل رسالة عند ما يقال باللسان غير ما يجول في الصدور .

وزحف عليّ من الكوفة الى صفّين ووجد جيش معاوية على الماء . فنحاه عنه بعد أن أبى عليه معاوية أن ينحيه بغير قتال .

وبدأت العثرات من ثم في كل خطوة يخطوها للسلام أو للقتال ، فلا يتحفز فريق من أنصاره للحرب حتى يثنيه فريق آخر يُحرّمها ولا يقول بوجوبها ، وتحاجز القوم نيفا وثمانين فزعة . وتصاولوا في وقعات شتى غامرت بها طائفة من هنا وطائفة من هنا ، وقلما اشتبك فيها الجيشان في وقعة جامعة حتى كانت وقعة الهرير ، وحاقت الهزيمة بجيش معاوية

وقيل انه همّ بالفرار ..واذا بالمصاحف ترفع على الحراب من قبل جيش الشام، واذا بالعثرة الكبرى التي لا خطوة بعدها في طريق فلاح . فان عليّاً نظر حوله ، فاذا بجيشه يوشك أن يقتتل فيما بينه نزاعاً على القتال أو القاء السلاح، وان معاوية لفي غنى عن كفاح قوم لا يتفقون على كفاحه . فله منهم سيوف مشرعة لنصرته ، شاءوا أو لم يشاءوا ، وسيكفونه مئونة الحرب حتى يتفقوا بينهم على حربه، وهيهات !

ولو كانت آفة الطاعة في جيش علي ، مقصورة على اجتهاد القراء والحفاظ ، وتعجل الغلاة والمتمردين . لكان في ذلك وحده ما يكفي لافساد التدبير واضطراب القيادة وتعذر القتال على أصوله .. اذ لا يستغني القائد في ميدان الحرب ، ولا في ميدان السياسة ، عن الكتمان والمفاجأة وتحويل الخطط على حسب الطوارىء والمناسبات . فاذا كان في كل عمل من أعماله عرضة لاجتهاد أصحاب الفتاوي ، وكان أصحاب الفتاوي يفترقون عشرين وجهة في كل حركة من حركات الجيش ،فليست له خطة تكتم ولا خطة تنفذ . وليس عجيباً بعد ذلك ، أن ينهزم في ميدان القتال شر هزيمة يبتلى بها مقاتل . بل العجيب أن يتماسك فترة من الزمن – وان قصرت – أمام جيش يفوقه في العدد ويرجع في أمره إلى قيادة موحدة ونية مجتمعة ومشيئة مطاعة .

* * *

ولكن الآفة مع هذا ، لم تكن كلها في اجتهاد الحفاظ وتعجل الغلاة.

بل كان في الجيش أناس يخونون عهده ويشغبون عليه ، ويبدو من أعمالهم أنهم مسخرون لعدوه كارهون لانتصاره . فان لم يكونوا كذلك ، فالأمر الذي لا شك فيـــه انهم كانوا يعملون وهم عامدون – وغير عامدين – شر ما يعمله الخائن الخبيث الذي يتحين الفرص للعناد والشقاق ، وافشاء الخلل والخذلان في أحرج الأوقات .

وأدهى من ذلك ، انه لم يكن قادراً على زجرهم والتنكيل بهم . لأن الجيش الذي يوجد فيه من يحرّم حرب العدو ، لن يعدم أناساً يحرّمون حرب النصير المقيم على ظاهر الطاعة ، وليس لك بينة قاطعة عليه ..

ومثل من ذلك أيضاً يغني عن أمثال كثيرة ، وهو مثل الأشعث بن قيس أكبر سادات كندة وأخلقهم أن ينصر حزباً على حزب ، لو خلصت نيته وبرئت شيمته من التقلب والغدر بأصحابه .

طمح هذا الرجل الى الملك بعد موت النبي عليه السلام ، فدعا قومه أن يتوّجوه . وحارب المسلمين مع المرتدين حتى حوصر في حصنه أياماً ، ويئس من الغلبة فاستسلم . على أن يصان دمـــه وبقية دم عشرة من أخصائه ، ثم فتح الحصن فقتل كل من فيه ونجا بالعشرة الذين اختارهم الى أبي بكر رضي الله عنه ، فقبل توبته وزوّجه أخته أم فروة . فلما نشبت الفتنة بين عليّ ومعاوية ، كان هو من حزب عليّ يتطلع للفرصة السانحـة .

ثم زحف عليّ رضي الله عنه إلى صفين ،فكان الأشعث أول المندفعين الى القتال حين سد أهل الشام طريق الماء ، وجاء علياً يقول : « يا أمير المؤمنين ! أيمنعنا القوم الماء وأنت فينا ومعنا سيوفنا ؟. ولّني الزحف اليه . فوالله لا أرجع أو أموت » .

ولكنه عاد إلى المسالمة ، بعد إن وضح النصر في ليلة الهرير ،فخطب في قومه من كندة قائلا :

« .. قد رأيتم يا معشر المسلمين ما قد كان في يومكم هذا الماضي ، وما قد فنى فيه من العرب . فوالله لقد بلغت من السن ما شاء اللّه ان أبلغ ، فما رأيت مثل هذا اليوم قط . ألا فليبلغ الشاهد الغائب أنا إن توافقنا غداً انه لفنيت العرب وضيعت الحرمات . أما والله ما أقول هذه المقالة خوفاً من الحرب ، ولكني رجل مسن أخاف على النساء والذراري غدا اذا فنينا » .

ثم ذهب الى عليٍّ رضي الله عنه بعد رفع المصاحف ، فقال له « ما أرى الناس الا قد رضوا وسرهم أن يجيبوا القوم الى ما دعوهم اليه من حكم القرآن . فان شئتَ أتيتُ معاوية فسألته ما يريد فنظرت ما يسأل » .

ولقي معاوية فسأله : « يا معاوية . . لأي شيء رفعتم هذه المصاحف ؟ »

قال : « لنرجع نحن وأنتم الى أمر الله عز وجل في كتابه . تبعثون منكم رجلاً ترضون به ، ونبعث منا رجلاً ، ثم نأخذ عليهما أن يعملا بما في كتاب الله لا يعدوانه . ثم نتبع ما اتفقا عليه » .

فقال الأشعث : « هذا الحق ! »

وعاد الى علي ينادي بالتحكيم ، ويختار له هو وأنصاره رجلاً ينوب عن علي ، وعليّ لا يرضاه .

***

وكان أنصار التحكيم قد تكاثروا واجترءوا على أمير المؤمنين ، فلم يبالوا أن يجبهوه بالقول السيىء منذرين متوعدين :

« يا علي ! أجب الى كتاب الله عزّ وجل اذا دعيت اليه ،والا ندفعك برمتك الى القوم أو نفعل كما فعلنا بابن عفان . انه عرض علينا أن نعمل بما في كتاب الله عز وجل فقبلناه . والله لتفعلنّها أو لنفعلنّها بك » .

وألحوا عليه أن يرد قائده الأشتر النخعي من ساحة الحرب ، والا اعتزلوه أو قتلوه .

فقبل التحكيم وهو كاره .

واختار أهل الشام عمرو بن العاص ، فقال الأشعث : « فإنا رضينا بأبي موسى الأشعري » .

قال عليّ : « انه ليس لي بثقة . قد فارقني وخذل الناس عني ، ثم

هرب مني حتى آمنته بعد أشهر ، ولكن هذا ابن عباس نوليه ذلك » .

قالوا : « لا نريد الا رجـلا هو منك ومن معاوية سواء ، ليس الى واحداً منكما بادنى من الآخر . »

قال : « فاني أجعل الأشتر »

قال الأشعث ـ وهو ينفس على الأشتر مكانته وبلاءه من قبل ـ : « وهل سعر الأرض غير الأشتر ؟ . أو قال : وهل نحن الا في حكم الأشتر ؟ » . .

فلما رأى اصرارهم وقلة أنصاره على رأيه بينهم قال : « فقد أبيتم الا أبا موسى ؟ »

قالوا : « نعم ! »

قال : « فاصنعوا ما بدا لكم ! »

* * *

فهذا رجل من الزعماء المطاعين في جيش علي ، لم يدع من وسعه شيئاً لتغليب حزب معاوية على حزبه ، واستكثر عليه أن يكون الحكم الذي يختاره نصيراً له مؤمناً بحقه وصحة رأية . ولا طائل في البحث عن هذا الخذلان الصريح ، أكان هو الطمع في الملك بعـــد فشل عليّ أم النقمة على الأشتر النخعي في مكانته وبلائه ، أم التواطؤ بينه وبين معاوية

علي منفعة مؤجلة ومكافأة موعودة . فانما النية الخبيثة ظاهرة وان استترت العلّة ، وأيا كانت العلّة الخفية فقد صنع الرجل غاية ما استطاع لتغليب حزب معاوية وخذلان الحزب الذي هو فيه .

قال عليّ يصف قسمته من الأنصار ،وقسمته من النوازل والعثرات :
« لو أحبني جبل لتهافت » .

وقال يصف أنصاره : « أيها الناس المجتمعة أبدانهم ، المختلفة أهواؤهم ، كلامكم يوهي الصم الصلاب ، وفعلكم يطمع فيكم الأعداء . ما عزّت دعوة من دعاكم ، ولا استراح قلب من قاساكم . أعاليل بأضاليل ، دفاع ذي الدين المطول . اي دار بعد داركم تمنعون ؟ . ومع اي إمام بعدي تقاتلون ؟ . المغرور والله من غرّرتموه ، ومن فاز بكم فقد فاز والله بالسهم الأخيب ، ومن رمى بكم فقد رمى بأفوق ناصل [1] . اصبحت والله لا أصدق قولكم ولا أطمع في نصركم ، ولا أوعد العدو بكم ، ما بالكم ؟. ما دواؤكم ؟. ما طبّكم ؟. القوم رجال أمثالكم ، أقولاً بغير علم ؟. وغفلةً من غير ورع ؟. وطمعاً في غير حق ؟. »

***

هي صيحة لا تصف الا بعض ما يعانيه من حيرة ، لا مخرج له منها

---

١ ـ الافوق هو السهم المكسور في موضع الوتر ، والفاصل العاري من النصل .

في سياسة أصحابه . فانه لم يفرغ من التحكيم الذي أذعن له وهو كاره ، حتى فوجىء بطائفة أخرى من أنصاره يرمونه بالكفر لأنه قبل ذلك التحكيم ، وزعموه قبولا للتحكيم في كلام الله وفي دماء المسلمين ، وهو عندهم كفرٌ بواح ، أولئك هم الخوارج الذين حاربوه بالسلاح ، وكانوا يحرمون عليه حرب معاويةَ قبل ذاك !

ثم اجتمع الحكمان بدومة الجندل التي وقع عليها الاختيار لتكون وسطا بين العراق والشام . ولم يكن قرار الحكمين خافياً على من عرفوا أبا موسى الأشعري وعمرو بن العاص، فان أبا موسى لم يكتم قط أن السلامة في اجتناب الفريقين والقعود عن القتال ، فليس أيسر من اقناعه بخلع صاحبه وخلع معاوية على السواء . ثم يرجع الرأي الى عمرو بن العاص في اقرار هذا الخلع أو الاحتيال فيه بالحيلة التي ترضيه .

إلا ان الدهاة من العرب ، كانوا يتوقعون من عمرو بن العاص أن يحتال لنفسه حتى يفرغ وسعه قبل أن يحتال لصاحبه الذي أنابه عنه .

ومن هؤلاء الدهاة المغيرة بن شعبه الذي اعتزل الفريقين من مطلع الفتنة الى يوم التحكيم ، فلما اجتمع الحكمان علم انها الجولة الأخيرة في الصراع . فخرج من عزلته ودنا ليستطلع الأمور ، على سنَّة الدهاة من أمثاله ، إذ يتنسمون الريح قبل هبوبها ، ولا يقلقون أنفسهم بمهبها

قبل أوانها . فلقي أبا موسى وعمرو بن العاص ، ثم ذهب الى معـــاوية وهو مشغول البال بطول الاجتماع بين الحكمين واضطراب الظنون فيما وراء هذا الابطاء المريب • فقال له وهو يرى اشتغال باله : « قد أتيتك بخبر الرجلين • »

قال معاوية : وما خبرهما ؟.

قال المغيرة : « اني خلوت بأبي موسى لأبلو ما عنده فقلت : ما تقول فيمن اعتزل عن هذا وجلس في بيته كراهية للدماء ؟ . فقال : أولئك خيار الناس ، خفت ظهورهم من دماء اخوانهم وبطونهم من أموالهم . فخرجت من عنده وأتيت عمرو بن العاص ، فقلت : يا أبا عبد الله ما تقول فيمن اعتزل هذه الحروب ؟. فقال : أولئك شرار الناس لم يعرفوا حقاً ولم ينكروا باطلاً » .

ثم عقب المغيرة قائلا « أنا أحسب أبا موسى خالعاً صاحبه وجاعلها ارجل لم يشهد ، وأحسب هواه في عبدالله بن عمر بن الخطـــاب ، وأما عمرو بن العاص فهو صاحبك الذي عرفته ، وأحسبه سيطلبها لنفسه أو لابنه عبدالله ، ولا أراه يظن انك أحق بهذا الأمر منه • »

وقد أحس المغيرة حزره نقط الحرف بالحرف في تقدير نية الرجلين، فانهما ما اجتمعا هنيهـــة حتى أقبل أبو موسى على عمرو يقول له : « يا عمرو !. هل لك فيما فيه صلاح الأمة ورضا الله ؟ »

قال : « وما هو ؟ . »

قال : « نولي عبد الله بن عمر ، فانه لم يدخل في نفسه شيء من هذه الحروب . »

فراغ عمرو قليلا يحاول أن يلقي في روع صاحبه انه يريد معاوية ، ثم عاد يسأله : « فما يمنعك من ابني عبد الله مع فضله وصلاحه وقديم هجرته وصحبته ؟ »

فأوشك أبو موسى ان يجيبه لولا انه قال : « ان ابنك رجل صدق ، ولكنك غمسته في هذه الحروب غمساً » .

وتكرر بينهما هذا القول وأشباهه في كل لقاء ، وطفقا يبدئان منه ويعيدان اليه بعد كل جدال ، حتى وقر في خلد الاشعري ان خلع الزعيمين أمر لا مناص منه ولا اتفاق بينهما على غيره ، فتواعدا إلى يوم يعلنان فيه هذا القرار .

وتقدم أبو موسى فقال بعد تمهيد : « ... أيها الناس ، انا قد نظرنا في أمر هذه الأمة ، فلم نر أصلح لأمرها ولا ألم لشعثها من أمر قد أجمع رأيي ورأي عمرو عليه ، وهو أن نخلع علياً ومعاوية ، ونستقبل الأمة بهذا الأمر فيولوا منهم من أحبوا عليهم ، واني قد خلعت علياً ومعاوية فاستقبلوا أمركم وولوا عليكم من رأيتموه لهذا الأمر أهلاً » .

وتلا عمرو فقال بعد تمهيد : « . . ان هذا قال ما سمعتم وخلع

صاحبه ، وأنا أخلع صاحبه كما خلعه ، وأثبّت صاحبي معاوية ، فانه وليّ عثمان بن عفان رضي الله عنه ، والطالب بدمه واحق الناس بمقامه ».

فغضب أبو موسى ، وصاح به : « مالك لا وفقك الله غدرت وفجرت ، انما مثلك مثل الكلب ان تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث .. »

فابتسم عمرو ، وهو يقول : « انما مثلك كمثل الحمار يحمل أسفاراً .. »

كلب وحمار فيما حكما به على نفسيهما غاضبين ، وهما يقضيان على العالم بأسره ليرضى بما قضياه .

وانتهت المأساة بهذه المهزلة ، أو انتهت المهزلة بهذه المأساة .

وبان أن اجتماع الحكمين لم يُفضِ إلى اتفاق بين الحكمين ، فعاد الخلاف إلى ما كان عليه .

إلا انه استشرى واحتدم بعد قصة الحكمين بما زاد عليه من فتنة الخوارج المنكرين للتحكيم .

فقد أجمعوا وأبرموا فيما بينهم « .. ان هذين الحكمين قد حكما بغير ما أنزل الله ، وقد كفر اخواننا حين رضوا بهما ، وحكموا الرجال في دينهم ونحن على الشخوص من بين أظهرهم ، وقد أصبحنا والحمد لله ونحن على الحق من بين هذا الخلق »

وخرجوا وعليٌّ يأبى قتالهم حتى ييأس من توبتهم، ولقيهم بالجيش، فآثر أن يلقاهم مناقشاً قبل أن يلقاهم مقاتلا، واقترح عليهم أن يخرجوا اليه رجلا منهم يرضونه، يسأله ويجيبه ويتوب إن لزمته الحجة و يتوبوا إن لزمتهم. فاخرجوا اليه امامهم عبد الله بن الكواء.

قال عليّ: «ما الذي نقمتم عليّ بعد رضاكم بولايتي وجهادكم معي وطاعتكم لي، فهلا برئتم مني يوم الجمل؟» ..

قال ابن الكواء: «لم يكن هناك تحكيم»

قال علي: «يا بن الكواء ويحك .. أنا أهدى ام رسول الله صلى الله عليه وسلم؟»

قال ابن الكواء: «بل رسول الله صلى الله عليه وسلم»

قال علي: «فما سمعت قول الله عز وجل: «قل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وانفسنا وانفسكم» أكان الله يشك أنهم هم الكاذبون ..

قال: «ان ذلك احتجاج عليهم، وانت شككت في نفسك حين رضيت بالحكمين، فنحن أحرى ان نشك فيك»

قال: «وان الله تعالى يقول: «فأتوا بكتاب من عند الله هو اهدى منهما أتبعه» ..

قال ابن الكواء : « ذلك ايضاً احتجاج منه عليهم » . ثم قال بعد كلام طويل من قبيل كلامه هذا : « انك صادق في جميع قولك غير انك كفرت حين حكمت الحكمين ».

قال عليٌّ : « ويحك يا بن الكواء .. اني إنما حكّمت أبا موسى وحكم معاوية عمروا »..

قال ابن الكواء : « فإن أبا موسى كان كافراً »

قال عليّ : « متى كفر ؟ .. أحين بعثته أم حين حكم ؟ » .

قال ابن الكواء : « بل حين حكم »

قال عليّ : « أفلا ترى اني بعثته مسلماً فكفر في قولك بعد أن بعثته . أرأيت لو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث رجلا من المسلمين الى ناس من الكافرين ليدعوهم الى الله[1] فدعاهم الى غيره ، هل كان على رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذلك شيء ؟ » .

قال : « لا »

قال : « ويحك .. فما كان عَلَيَّ ان ضل أبو موسى ؟ أفيحل لكم بضلالة أبي موسى أن تضعوا سيوفكم على عواتقكم فتعترضوا بها الناس ؟ »

---

١ — وقد حدث هذا في عهد النبي عليه السلام إذ اوفد نهاراً الرجال ليهدي قوم مسلمة فانقلب هناك مبشراً بدينه .

فعلم الخوارج ان صاحبهم ليس بندٍّ لعلي في مجال نقاش ، فكفوه عن الكلام كانهم آمنوا بصدق عليٍّ في حجتـــه وقصده ، لولا انهم قوم قهرتهم لجاجة العناد كما تقهر أمثالهم من المتهوسين الذين يجـــدون في المضي مع العناد لذة يستمرئونها من الحق والمعرفة.. فمردوا على الشقاق ، وأصروا على تكفير علي وأصحابه ، وأن يعاملوهم في الحرب والسلم معاملة الكفار ..

***

واستبقى عليّ بعد هذا كله بقية للسلم والمراجعة .. فرفع في الساحة راية ضم اليها ألفي رجـل ونادى : « من التجأ الى هذه الرايـة فهو آمن » .

ثم قـال لأصحابه : « لا تبدءوهم بالقتـال حتى يبدءوكم » فصـاح الخوارج صيحتهم : « لا حكم إلا الله وان كره المشركون » وهجموا هجمة رجل واحد .. وتلقاهم عليّ واصحابه لقاء من نفذ صبره ووغر صدره . فما هي الا ساعـة حتى قتل معظم الخوارج ، وبقي منهم نحو أربعمائة أصيبوا بجراح وعجزوا عن القتال ، فأمر بهم عليٌّ فحملوا إلى عشائرهم لينظروا من فيه رمق فيدركوه بعلاج .

وأراد المسير إلى الشام ليلقى بها جيش معاوية ..

فتصدى له الأشعث بن قيس مرة أخرى ، كما تصدى له في كل فرصة

سانحة للغلبة ، وقال له على مسمع من الناس : « يا أمير المؤمنين .. نفدت نبالنا ، وكلت سيوفنا ، ونصلت أسنة رماحنا ، فارجع بنا الى مقرنا لنستعد بأحسن عدتنا ، ولعل أمير المؤمنين يزيد في عدتنا عدة من هلك منا ، فانه أوفى لنا على عدونا » .

• • •

وتسلل الجند من معسكرهم ، ولاذ من لاذ بالمدن القريبة منهم ، وأيقن عليّ ان القوم مارقون من يده ، ولا طاعة له عليهم اذا دعاهم بعدها لقتال ..

أما معاوية فقد علا نجمه بين قومه، وأعانه طلاب المنافع عامدين ، وأعانه الخوارج غير عامدين ، فحاربوا علياً ولم يحاربوه ، وطلبوا التوبة من عليّ ولم يطلبوها منه ، واستمر هو في إنفاذ البعوث والسرايا الى كل موضع آنس منه غرة وظن بزعمائه موجدة أو سآمة . فلم تنقض سنتان حتى كانت معه مصر والمدينة ومكة ، وبقي عليّ في أرباض الكوفة يائساً منعزلاً عن الناس، يتمنى الموت كما قال في بعض خطبه ، ويوجس شراً من أقرب المقربين اليه ، وانتهى بقبول المهادنة بينه وبين معاوية على أن تكون له العراق ولمعاوية الشام ، ويكفا السيف عن هذه الأمة ، فلا نزاع ولا قتال ..

• • •

وبقيت في كنانة الاقدار مصادفة من هذه المصادفات التي يخيل اليك وأنت تتعقبها ، انها تجمعت منذ الأبد ليبوء عليّ بنقائض الموقف كله ، ويظفر خصومه بتوفيقات الموقف كله.. فشاءت هذه المصادفة الأخيرة أن يتفق ثلاثة على قتل ثلاثة ، فيذهب هو وحده ضحية هذه المكيدة العاجلة ، ويفلت زميلاه فيها : معاوية ، وعمرو بن العاص .

اجتمع عبد الرحمن بن ملجم والبرك عبدالله وعمرو بن بكر التميمي، وهم من غلاة الخوارج الموتورين ، فتذاكروا القتلى من رفاقهم ، وتذاكروا القتلى من المسلمين عامة ، وألقوا وزر هذه الدماء كلها على ثلاثة من الكفار — أو أئمة الضلالة في رأيهم — وهم : علي بن أبي طالب ، ومعاوية بن أبي سفيان ، وعمرو بن العاص .

فقال ابن ملجم : « أنا أكفيكم عليّ بن أبي طالب »

وقال البرك : « أنا أكفيكم معاوية بن أبي سفيان »

وقال عمرو بن بكر : « أنا أكفيكم عمرو بن العاص »

وإن ضغينة الثأر لحافز أي حافز ..

وان تهوّس العقيدة لمثير أي مثير .

وكان للمتآمرين الثلاثة قسط وافٍ من هذين الحافزين ، يغني عن مزيد من التحريض على القتل والانتقام .

ولكن المصادفة العجيبة هي التي شاءت أن تشحذ عزيمة ابن ملجم

بحافز ثالث لعله يمضي حين ينبو هـذان الحافزان الماضيان ، . هو حافز من الغرام الظامىء لا يرويه إلا دم ذلك الشهيد الكريم .

فان المرء قد ينيم ثائرة الحقد ، وقد يماري نفسه فيما تفرضه العقيدة .. ولكنه اذا كان عاشقاً مخبولا يستنجزه الوعد معشوق مسلّط غليه ، فهو ماسور زمامه في يدي غيره ، وليس في يديه .

* * *

وكان ابن ملجم يحب فتاة من تيم الرباب ، قتل أبوها وأخوها وبعض أقربائها في معركة الخوارج . وكانت توصف بالجمـــال الفائق والشكيمة القوية ، وتدين بمذهب قومها فوق مـــا في جوانحها من لوعة الحزن على ذويها ، فلما خطبها ابن ملجم لم ترض به زوجاً الا أن يشفي لوعتها . قال : « وما يشفيك ؟ » قالت : « ثلاثة آلاف درهم وعبد وقينة ، وقتل عليّ بن أبي طالب » .

قال : « أما قتل علي فلا أراك ذكرته لي وأنت تريدينني .. »

قالت : « بل ألتمس غرته .. فاذا أصبت شفيت نفسك ونفسي ويهناك العيش معي ، وان قتلت فما عندالله خير من الدنيـــا وزينتها وزينة أهلها » .

وخرج الثلاثة متواعدين الى ليلة واحدة ، يقتل كل منهم صاحبه في ذلك الموعد ..

فأما عمرو بن العاص ، فقد اشتكى بطنه تلك الليلة فلم يخرج من بيته، وأمر خارجة بن حذافة صاحب شرطته أن يصلي بالناس . فضربه عمرو بن بكر وهو يحسبه عمرو افقتله . فقال عمرو :أردتني وأراد الله خارجة ، وأمر بقتله ..

وأما معاوية فضربه البرك بن عبدالله ، وقد خرج الغداة للصلاة فوقعت الضربة على إليته .. وقيل ان الطعنة مسمومة لا يشفيها إلا الكي بالنار أو شراب يمنع النسل . فجزع معاوية من النار ، ورضي انقطاع النسل ، وهو يقول : « في يزيد وعبد الله ما تقر به عيني» وأمر بالرجل فقتل لحينه .

وأما عليّ فضربه ابن ملجم في جبينه بسيف مسموم ، وهو خارج للصلاة ، فمات بعد أيام وهو يحذر أولياء دمه من المثلة ويقول لهم : « يا بني عبد المطلب . لا ألفينكم تخوضون دماء المسلمين تقولون قتل أمير المؤمنين ، قتل أمير المؤمنين .. ألا لا يقتلن أحد قاتلي . »

« انظر يا حسن ! إن أنا متّ من ضربته هذه فاضربه ضربة بضربة . ولا تُمثِّل بالرجل فاني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : اياكم والمثلة ولو انها بالكلب العقور » .

* * *

وهذه خاتمة فاجعة ، ننظر في كل فرض من فروضها فلا نخليها من

المصادفة السيئة التي لا تلقى تبعتها على أحد بعينه .

فمهما يقل القائلون ان عليًّا انما أصيب لأنه كان لا يتقي أحداً ، ولا يخرج الى المسجد بحرس ، فالواقع ان المصادفة السيئة قائمة هناك تفرق في عثرات الحظ بينه وبين زميليه اللذين سيقا معه الى مكيـــدة واحدة .. فخرجا منها بحظين غير حظه ، فان ابن العاص لم ينج من القتل لأنه خرج الى المسجد محروساً ، ولكنه نجا لأنه لزم بيته في تلـــك الليلة ، ومات صاحب شرطته الذي خرج في مكانه. ولم ينج معاوية لأنه خرج محروساً ، ولكنه نجا لأنه أصيب وكانت اصابته غير قاتلة .

فهي المصادفة السيئة مهما تلتمس لها علّة من علّل التاريخ ، ترجع بنا في آخر الأمر إلى علل المصادفات التي لا تقبل التعليل .

وشي آخر تصوره لنا هـــذه الخاتمة الفاجعة ، كما تصوره لنا البيعة كلها من قبل ابتدائها الى ما بعد انتهائها .

وذلك هو النسيج الانساني النابض الذي يتخلل حياة عليّ في لُحمتها وُسداها ، وفي تفصيل اجزائها وُجملة فحواها ، فما من حادثة من حوادث هذه الحياة النبيلة إلا وهي مَعرضٌ حافِلُ للعواطف الانسانية برمتها ، تلتقي فيه عوامل النخوة والشجاعة والوفاء والايمان والسماحة ، وتشتبك فيه مطامع الناس وأشواقهم وظواهرهم وخفاياهم .. ذلك الاشتباك الذي يخلقه الشعراء خلقاً في القصص والملاحم ، فلا يحكمونـــه بعض إحكام الواقع الملموس في سيرة الامام . وقـــد أسلفنا في صدر هذا الكتاب انها

سيرة تلامس النفس الانسانية في شتى نواحيها : تلامسها من ناحية العقيدة كما تلامسها من ناحية العاطفة ،ومن ناحية الفكر كناحية الخيال، ومن ناحية التمرد كناحية الولاء . فاذا اتبعت السيرة بالخاتمة ، فأيّ خيط من خيوط تلك الشبكة الانسانية التي تنسجها القرائح لاقتناص الشعور وتقريب الخيال تفقده في هذه الخاتمة الفاجعة ؟ أي باعث من بواعث القصص الدامية بأحاسيسها ولواعجها لا يرتعد هنا ارتعاداً في كل فصل من فصولها ومشهد من مشاهدها ؟ يأس الكريم المغلوب وجرأة المحتال الغالب ، وغرام المتهوس المجنون ، وأريحية القتيل الموصي بمن اعتدى عليه ، وحقد المرأة وخداع الجمال ، وزيغ العقيدة ، واستواء الايمان ، وفنون لا تحصى تجتمع من الشعور الموّار واللهفة الدائمة في خاتمة حياة تسع ألفَ حياة .

***

وهذه مزية عليّ بين خلفاء الاسلام قاطبة . ينفرد بها لأنه انفرد بمثال مِنَ النفوس ومثال مِن العوارضِ الفردية والاجتماعية تؤلفه المصادفات في الأجيال الطوال، ولا تحسن أن تؤلفه بمشيئتها في كل جيل .

تلك حياة حيّ .. وذلك مصرع شهيد .



٦

سياسة

تسري في صفحات التاريخ أحكام مُرتجلة يتلقفها فم مِنْ فمٍ ، ويتوارثها جيلٌ عن جيل ، ويتخذها السامعون قضية مسلمة ، مَفروغاً من بحثها والاستدلال عليها ، وهي في الواقع لم تُعرَض قط على البحث والاستدلال ، ولم تجاوز أن تكون شُبهةً وافقت ظواهر الأحوال ، ثم صقلتها الألسنة فعزّ عليها بعد صقلها أن تردّها الى الهجر والإهمال .

كل أولئك من لغو الشعوب .. وللشعوب بداهة تقصر دونها بداهة الغواصين من الأفراد ، ولكنها اذا لَغت فشوطها في اللغو أوسع من شوط الفرد بأمد بعيد ..

من تلك الأحكام المرتجلة قولهم ان عليّاً بن أبي طالب رجلٌ شجاع ، ولكن لا علم له بخدع الحرب والسياسة !

وقد شاع هـــذا الرأي في عصر علي بين أصحابه ، كما شاع بين اعدائـه ، وعزّز القول به انـه خالف الدهاة من العرب فيا أشاروا به عليه ، وانه لم ينجح بعد هـذه المخالفة في مُعظم مساعيه ، فكان من الطبيعي أن يُقال انه مُني بالفشل لأنه عمل بغير ما أشار به أصحابه الدهاة ، وانه هو لم يكن من اصحاب الخـدع الناجحة في الحرب أو السياسة ..

وقد يكون كذلك أو لا يكون ، فسنرى بعد البحث في آرائه وآراء المشيرين عليه أيّ هذين القولين أدنى إلى الصواب .

ولكن هل خطر لاحد من ناقديه، في عصره أو بعد عصره ، أن يسأل نفسه : أكان في وسع عليّ أن يصنع غير ما صنع ؟

وهل خطر لأحد منهم أن يسأل بعد ذلك : هبه استطاع أن يصنع غير ما صنع فما هي العاقبة ؟.. وهـل من المحقق انه كان يُفضي بصنيعه الى عاقبة أسلم من العاقبة التي صار اليها ؟..

لم نعرف أحداً من ناقِديه ، خطر له أن يسأل عن هذا أو ذاك .. مع ان السؤال عن هـذا وذاك هو السبيل الوحيد الى تحقيـــق الصواب والخطأ في رأيه ورأي مخالفيه ، سواء كانوا من الدهاة أو غير الدهاة ..

والذي يبدو لنا نحن من تقدير العواقب على وجوهها المختلفة ان العمل

بغير الرأي الذي سِيق اليه لم يكن مضمون النجاح ولا كان مأمـون الخطر ، بل ربما كان الأمـــل في نجاحه أضعف والخطر من اتباعه أعظم ، لو أنه وُضع في موضع العمل والانجاز وخرج من حيّز النصح والمشورة :

وهذه هي المسائل التي خالفه فيها الدهاة،أو خالفه فيها نَقدَة التاريخ الذين نظروا اليها من الشاطىء ، ولم ينظروا اليها نظرة الربان في غمرة العواصف والأمواج ..

* * *

فالمآخذ التي من هذا القبيل ، يمكن أن تنحصر في المسائل التالية ، وهي : .

١ ـ عزل معاوية .

٢ ـ معاملة طلحة والزبير .

٣ ـ عزل قيس بن سعد من ولاية مصر .

٤ ـ تسليم قتلة عثمان .

٥ ـ قبول التحكيم .

٦ ـ قبول الخلافة .

وهي كلها على الأقل قابلة للخلاف والاحتجاج من كلا الطرفين . .

فان لم يكن خلاف وكان جزم قاطع .. فهو على ما نعتقد أقرب الى رأي عليّ وأبعد من آراء مُخالفيه وناقديه . .

قيل في مسالة معاوية ان عليّاً رضي الله عنه خالف فيها رأي المغيرة وابن عباس وزياد بن حنظلة التميمي ، وهم جميعاً من المشهورين بالحنكة وحسن التدبير .

جاءه المغيرة بن شعبة بعد مبايعته فقال له : « ان لك حق الطاعة والنصيحة ، وان الرأي اليوم تحرز به ما في غد ،وان الضَياعَ اليوم تضيع به ما في غد . أقرر معاوية على عمله ، وأقرر العمال على أعمالهم، حتى اذا أتتك طاعتهم وبَيعة الجنود استبدلت أو تركت »

فابى وقال : « لا أداهِن في ديني ، ولا أعطي الدنية في أمري »

قال المغيرة : « فان كنت أبيت عليّ فانزع من شئت واترك معاوية، فان في معاوية جرأة، وهو في أهل الشام يُستمع له ولك حجة في اثباته.. إذ كان عمر قد ولاه الشام » ..

فقال عليّ : « لا والله .. لا أستعمل معاوية يومين »

***

ثم خرج المغيرة ودخل عليه ابن عباس فقال له، لما علم برأي المغيرة : « انه نصحك » ..

قال عليّ : « ولِمَ نصحني ؟ »

قال : « لأنك تعلم ان معاوية وأصحابه أهل دُنيا ، فمتى تثبتهم لا يُبالوا بمن وليَ هذا الأمر ، ومتى تعزلهم يقولوا أخذ هذا الأمر بغير شورى ، وهو قتل صاحبنا ، ويؤلبوّن عليك فينتقضُ عليك أهل الشام وأهل العراق » . .

ثم مضت الأيام ، وشاع بين أهـــل المدينة ان معاوية مُنتقِض على الامام .. فبعثوا بزياد بن حنظلة التميمي يعلم ما عنده من أمر هـــذا الانتقاض ، وكان زياد من جلسائه .

فقال له الامام : « تيسّر »

قال زياد : « لأي شيء ؟ »

قال : « تغزو الشام »

فقال زياد : « الأناة والرفق أمثل ، واستشهد بقول الشاعر :

وَمَنْ لَمْ يصانع في أمورٍ كثيرة يَضرّس بانيابٍ ويُوطأ بمنسم

فتمثل عليّ :

متى تجمب القلع الذكيّ وصارما وأنفا حمياً تجتنبك المظالم »

فخرج زياد الى الناس وهم يَسالونه « ما وَرَاءك ؟ » فأجابهم : « هو

السيف يا قوم ! » ..

* * *

تلك آراء المشيرين من ذوي الحنكة ، وذلك ما عَمل به الامام وارتضاه .. فأيهما على خطأ وأيهما على صواب ؟

سبيل العِلم بذلك أن نعلم أولاً : هل كان الامام مستطيعاً أن يقرّ معاوية في عمله بالشام ؟ ...

وان نعلم بعد هذا : هل كان اقراره أدنى الى السلامة والوفاق لو أنه استطيع ؟ .

وعندنا ان الامام لم يكن مُستطيعاً أن يقر معاوية في عمله لسببين : أولهما انه أشار على عثمان بعزله أكثر من مرة ، وكان اقراره واقرار أمثاله من الولاة المستغلين أهم المآخذ على حكومة عثمان في رأي عليّ وذوي الصلاح والاستقامة بين الصحابة ، وكثيراً ما اعتذر عثمان من اقرار معاوية بأنه من ولاة عمر بن الخطاب .. فكان عليّ لا يقبل هذا العذر ولا يزال يقول له : « انه كان أخوف لعمر بن الخطاب من غلامه « يرفأ » .. ولكنه بعد موت عمر لا يخاف » .

فاذا أقرّه وقد وليَ الخلافة ، فكيف يقع هذا الاقرار عند أشياعه ؟ ألا يقولون انه طالبُ حكمٍ لا يعنيه اذا وصل الى بغيته ما كان يقول ، وما سيقوله الناس ؟

واذا هو أعرض عن رأيه الأول، فهل في وسعه أن يُعرض عن آراء الثائرين الذين بايعوه بالخلافة لتغيير الحال والخروج من حكم عثمان الى الى حكم جديد ؟..

ان هؤلاء الثائرين أشفقوا من نية الصُلح مع طلحة والزبير في وقعة الجمل ، فبدأوا بالهجوم قبل أن يؤمروا به .. هجموا على أهل البصرة وهم مامورون بالهُـــدنة والاناة . فكيف تراهم يهدأون ويطيعون اذا علموا ان الولايات باقيـــة على حالها ، وان الاستغلال الذي شكوا منه وسخطوا عليه لا تبديل فيه ؟ .

وندع هذا ونزعم ان اقرار معاوية بحيلةٍ من الحيل مستطاع .. فهل هو على هذا الزعم أسلم وأدنى الى الوفاق ؟

كلا .. على الأرجح ، بل على الرجحان الذي هو في حكم التحقيق . لأن معاوية لم يعمل في الشام عمل والٍ يظل والياً طول حياته ، ويقنع بهذا النصيب ثم لا يتطاول الى ما ورائه ، ولكنه عمل فيها عمل صاحب الدولة التي يؤسسها ويدعمها له ولأبنائه من بعده .. فجمع الأقطاب من حوله ، واشترى الأنصار بكل ثمن في يديه ، وأحاط نفسه بالقوة والثروة، واستعد للبقاء الطويل ، واغتنام الفرصة في حينهـــا .. فأي فرصة هو واجدُها خير من مقتل عثمان والمطالبة بثأره ؟

وانما كان مقتل عثمان فرصة لا يضيعها ، والا ضاع منه الملك وتعرض

يوماً من الأيام لضياع الولاية . وما كان مِثل معاوية بالذي يفوته الخطر مِن عزله بعد استقرار الأمور، ولو على احتمال بعيد .. فماذا تراه صانعاً اذا هو عُزل بعد عام من مبايعته لعليّ وتبرئته إياه من دم عثمان ؟

انما كان مقتل عثمان فرصة لغرض لا يقبل الإرجاء ..

واذا كان هذا موقف عليّ ومعاوية عند مقتل عثمان ، فماذا كان عليّ مستفيداً من اقراره في عمله وتعريض نفسه لغضب أنصاره ..

لقد كان معاوية أحرى أن يستفيد بهذا من عليّ ، لأنه كان يغنم به حسن الشهادة له وتزكية عمله في الولايـــة ، وكان يغنم به أن يفسد الأمر على عليّ بين أنصاره ، فتعلو حجته من حيث تسقط حُجة الامام ..

وأصدق ما يقال بعد عرض الموقف على هذا الوجه من ناحيتيه ان صُواب الامام في مسألة معاوية كان أرجح من صواب مخالفيه .. فان لم تؤمن بهذا على التقدير والترجيح ، فأقل مـــا يقال ان الصواب عِنده وعندهم سواء ..

والتقدير في مسألة طلحة والزبير أيسر من التقدير في مسألة معاوية وولاة عثمان على الأمصار :

لأن الرأي الذي عمل به الامام معروف، والآراء التي تخالفه لا تعدو واحداً من ثلاثة ، كلها أغمض عاقبة ، واقل سلامة ، وأضعف ضماناً من

رأيه الذي ارتضاه .

فالرأيُ الأول أن يوليهما العراق واليمن او البصرة والكوفة ،وكان عبد الله بن عباس على هـــذا الرأي فانكره الامـام لأن « العراقين بهما الرجال والأموال ، ومتى تملكا رقاب الناس يستعملان السفيه بالطمع ويضربان الضعيف بالبلاء ، ويقويان على القويّ بالسلطان . »ثم ينقلبان عليه أقوى مما كانا بغير ولاية ، وقد استفادا من اقامــة الامام لهما في الولاية تزكية يلزمانه بها الحجة ، ويثيران بها أنصاره عليه .

***

والرأي الثاني أن يُوقع بينهما ليفترقا ولا يتفقا على عمــل ، وهو لا ينجح في الوقيعة بينهما إلا باعطاء أحدهما وحرمان الآخر .. فمن أعطاه لا يضمن انقلابه مع الغرّة السانحة ، ومن حرمه لا يامن أن يهرب الى الاثرة كما هرب غيره ، فيذهب الى الشام ليُساوم معاوية ، أو يبقى في المدينة على ضَغينة مستورة ..

على انهما لم يكونا قط متفقين حتى في مسيرهما من مكة الى البصرة ، فوقع الخلاف في عسكرهمــا على من يصلي بالناس ، ولولا سعي السيدة عائشة بالتوفيق بين المختلفين لافترقا من الطريق خصمين متنافسين ..

ولم تطل المحنة بهما متفقين أو مختلفين ، فانهزما بعــد أيام قليلة ، وخرج الامام من حربهما أقــوى وأمنع مما كان قبل هذه الفتنة ،

ولو بقيا على السلم المدخول لما انتفع بهما بعض انتفاعه بهذه الهزيمة العاجلة .

والرأي الثالث أن يعتقلهما أسيرين ولا يبيح لهما الخروج من المدينة الى مكة حين سألاه الاذن بالمسير اليها ، ثم خرجا منها الى البصرة ليشنا الغارة عليه ..

والواقع ان الامام قد استراب بما نوياه حين سألاه الاذن بالسفر الى مكة .. فقال لهما : « ما العُمرة تريدان ، وانما تريدان الغدرة ! »

ولكنه لم يحبسهما ، لأن حبسهما لن يغنيه عن حبس غيرهما من المشكوك فيهم. وقد تركه عبد الله بن عمر ولم يستأذنه في السفر ، وتسلل الى الشام أناس من مكة ومن المدينة ولا عائق لهم أن يتسللوا حيث شاءوا ، ولو انه حبسهم جميعاً لما تسنّى له ذلك بغير سلطان قاهر ، وهو في ابتداء حكمه لما يظفر بشيء من ذلك السلطان، وأغلب الظن ان سواد الناس كانوا يعطفون عليهم وينقمون حبسهم قبل أن تثبت له البينة بوزرهم . وما أكثر المتحرجين في عسكر الامام من حبس الأبرياء بغير برهان ؟. لقد كان هؤلاء خُلقاء أن ينصروهم عليه وقد كانوا ينصرونه عليهم، وخير له مع طلحة والزبير وأمثالهما أن يُعلنوا عصيانهم فيغلبهم من أن يكتموه فيغلبوه ويشككوا بعض أنصاره في عدله وحُسن مجاملته لهم.

***

وعلى هذا كله، حاسنوه ولم يُصارحوه بعداء .. لم يكن الجيش الذي خرج من مكة الى البصرة بيائس من الخروج اليها اذا لم يصحبه طلحة والزبير فقد كانت « العثمانية » في مكة حزباً موفور العدد والمال .. فهي مسالة تلتبس فيها الطرائق ، ولا يسعنا أن نُجزم بطريقة منها أسلم ولا أضمن عاقبة من الطريقة التي سلكها الامام وخرج منها غالباً على الحجاز والعراق ، وما كان وشيكاً أن يغلب عليهما لو بقي معه طلحة والزبير على فرض من جميع الفروض التي قدمناها ..

أما عزل قيس بن سعد من ولاية مصر ، فهي غَلطة من غلطات الامام يقل الخلاف فيها ..

لأن قيساً بن سعد كان أقدَر أصحابه على ولاية مصر وحمايتها ، وكان كفؤاً لمعاوية وعمرو بن العاص في الدهاء والمداورة ، فعزله الامام لأنه شكّ فيه .. وشك فيه لأن معاوية أشاع مَدْحه بين أهل الشام، وزعم انه من حِزبه والمؤتمرين في السرّ بامره .

وكان أصحاب عليّ يُحرضونه على عزله ، وهو يستمهلهم ويُراجع رأيه فيه حتى اجتمعت الشبهات لديه .. فعزله وهو غير واثق من التهمة، ولكنه كذلك غير واثق من البراءة .

وشبهاته مع ذلك لم تكن بالقليلة ولا بالضعيفة ، فان قيساً بن سعد لم يدخل مصر الا بعد أن مرّ بجماعة من حزب معاوية ، فاجازُوه ولم

يحاربوه وهو في سبعة نفر لا يحمونه من بطشهم، فحسبوه حين أجازوه من العثمانية الهاربين الى مصر من دولة عليّ في الحجاز .

ولما بايع المصريون علياً على يديه ، بقي العثمانيون لا يبايعون ولا يثورون ، وقالوا له : « أمهلنا حتي يتبين لنا الأمر » فامهلهم وتركهم وادعين حيث طاب لهم المقام بجوار الاسكندرية .

* * *

ثم أغراه معاوية بمناصرته والخروج على الامام ، فكتب اليه كلاماً لا الى الرفض ولا الى القبول ، ويصح لمن سمع بهذا الكلام أن يحسبه مُراوغاً لمعاوية أو يحسبه مترقباً لساعة الفصل بين الخصمين .. اذ كان ختام كتابه اليه : « ... أما مُتابعتك فأنظرُ فيها ، وليس هذا مما يسرع اليه وانا كاف عنك فلا ياتيك شيء من قبلي تكرهه ، حتى نرى وترى »

ثم اشتد في وعيده حين أنذره معاوية فقال : « أما قولك اني مالىء عليك مصر خيلاً ورجلاً ، فوالله ان لم أشغلك بنفسك حتى تكون نفسك أهم اليك إنك لذو جد والسلام .. »

وأراد الامام أن يستيقن من الخصومة بين قيس ومعاوية ،فأمر قيسا أن يحارب المتخلفين عن البيعة .. فلم يفعل وكتب اليه : «... متى قاتلنا ساعدوا عليك عدوّك ، وهم الآن معتزلون والرأي تركهم »

فتعاظم شك الامام وأصحابه ، وكثر المشيرون عليه بعزل قيس واستقدامه الى المدينة .. فعزله واستقدمه ، وتبين بعد ذلك انه أشار بالرأي الصواب ، وان تَرْك المتخلفين عن البيعة في عزلتهم خير من التعجيل بحربهم لأنهم هزموا محمداً بن أبي بكر والي مصر الجديد، وجرّءوا عليه من كان يصانعه ويواليه .

غلطة لا ريب فيها ..

وان كان جائزاً مع هذا الا يهزموا قيساً ، لو كان حاربهم كما هزموا خلَفهُ الذي لا يعدله في الحزم والخبرة .

ولكننا نبالغ على كل حال ، اذا علقنا بها الجرائر التي أصابت الامام من بعدها ، وزعمنا انه تقاعد عن اصلاحها في حينها ، كما تصلح الغلطات التي يساق اليها الساسة .. فانما هي غلطة من تلكم الغلطات التي تُضير والحوادث مُولية .. وقلما تضير أو تعز على الاصلاح والحوادث مؤاتية . وقد عرف الامام خطأه فقال لصحبه : « ان مصر لا يصلح لها الا أحد رجلين هذا الذي عزلناه والأشتر » وأنفذ الأشتر الى مصر ليعيدَها الى طاعته فمات في الطريق ..

* * *

والأقوال في موت الأشتر هذه الميتة الباغتة كثيرة ، منها انه مات

وان معاوية أغرى به من دسّ له السُّم في عسل .. شربه وهو على حدود مصر فقضى نحبه ، ورُوِيَ ان معاوية قال حين بلغه موته : « ان لله جنوداً من العسل ».

فان صحت الرواية ، واعتقد من اعتقد انها من دلائل السياسة القوية عند معاوية .. فمما لا شك فيه ان موت الأشتر ، لم يكن من دلائل السياسة الضعيفة عند الامام ، وانه لا لوم على سياسته في اغتياله ، ان كان فيه سبب ثناء على سياسة الغيلة عند من يحمدونها .

ومن عجائب هذه القصة ان معاوية نَدم على تقريب قَيس من جوار عليّ ، وقال « لو أمددته بمائة ألف لكانوا أهون عليّ من قيس » لأنه قد ينفعه وهو قريب منه بالمشورة عليه في عامة أموره ، ولا ينحصر نفعه له في سياسة مصر وحدها .

ولكن الذي حذره معاوية لم يكن ، والذي حذره عليّ كان .

واذا ولت الحوادث ، فقد ينفع الخطأ وقد يُضير الصواب .

ثم تاتي مسالة القَصَاص من قتلة عثمان التي كانت أطول المسائل جدلاً بين الامام وخصومه ، فاذا هي أقصرها جدلاً مع براءة المقصد من الهوى وخلوص الرغبة في الحقيقة ..

فقد طالبوه بالقود ولم يُبايعوه ، مع أن القود لا يكون الا مِن وليّ الأمر

المعترف له باقامة الحدود .

وطالبوه به ولم يعرفوا مَن القتلة ومَن هو الذي يؤخذ بدم عثمان من القبائل أو الأفراد ..

واعنتوه بهذا الطلب لأنهم علموا انه لا يستطاع قبل أن تَثوب السكينة الى عاصمة الدولة ، وأعفوا أنفسهم منه ــ وهم ولاة الدم كما يقولون ــ يوم قبضوا على عنان الحكم وثابَت السكينة الى جميع الأمصار .

***

وقد تحدث الامام مرة في أمر القود من قَتلة عثمان ، فاذا بجيش يبلغ عشرة آلاف يشرعون الرماح ويجهرون بانهم « كلهم قَتلة عثمان » .. فمن شاء القود فليأخذه منهم أجمعين .

وكان الامام يقول لمن طلبوا منه اقامة الحدود : « إني لست أجهل ما تعلمون ، ولكني كيف أصنع بقوم يملكوننا ولا نملكهم ، ها هم هؤلاء قد ثارت معهم عبدانكم وثابت اليهم أعرابكم ، وهم بينكم يسومونكم ما شاءوا ، فهل ترون موضعاً لقدرة على شيء مما تريدون ؟ »

ومن قوله لهم : « .. ان هذا الأمر أمر جاهلية ، وان لهؤلاء القوم مادة ، وان الناس من هذا الأمر الذي تطلبون على أمور : فرقة ترى ما ترون ، وفرقة ترى ما لا ترون ، وفرقة لا ترى هذا ولا هذا حتى تهدأ الناس وتقع القلوب مواقعها ، وتؤخذ الحقوق فاهدءوا عني ، وانظروا

ماذا يأتيكم ثم عودوا »

ولو ان المطالبين بدم عثمان التمسوا أقرب الطرق الى الثأر له، والقصاص من العادين عليه، لقد كان هذا أقرب الطرق الى ما أرادوا ... يؤيّدون وليّ الأمر حتى يقوى على اقامة الحدود، ثم يُحاسِبونه بحكم الشريعة حساب انصاف..

الا انهم طلبوا ما لا يجاب، وما لم يكن من حقهم أن يطلبوه، وليس بينهم أعفّ ولا أتقى من السيدة عائشة رضي الله عنها. وقد رُويَ عنها انها قالت لما أخبرت ببيعة عليّ وهي خارجة من مكة: « ليت هذه انطبقت على هذه إن تمَّ الأمر لعليّ » تشير الى السماء والأرض.. ثم عادت الى مكة وهي تقول: « قُتل والله عثمان مظلوماً، والله لأطلبنّ بدمه » ..

فقيل لها: « ولمَ ؟.. والله ان أول من أثار الناس عليه لأنت.. ولقد كنت تقولين: اقتلوا « نعثلاً » فقد كفر.

فقالت « انهم استتابوه ثم قتلوه، وقد قلت وقالوا، وقولي اليوم خير من قولي الأول ».

وناهيك بالسيدة عائشة في فضلها ومكانتها وتقواها، فقل ما شئت في المطالبين غيرها بهذا الطلب الذي لا يُجاب.

والرضا أو الارضاء ، مستحيل حـــين يكون الطلب من هذا القبيل .

* * *

أما الذين لاموه لقَبوله التحكيم ، فيخيل الينا من عجلتهم الى اللوم أنهم كانوا أول من يلومه ويُفرط في لومه لو انه رفض التحكيم وأصر على رفضه ، لأنه لم يقبل التحكيم وله مندوحة عنه ..

ولكنه قَبِله بعـــد احجام جنوده عن الحرب ، ووشك القتال في عسكرهم خلافاً بين من يقبلونه ويرتضونه .

وقَبِله بعد أن حجز الحفاظ والقراء نيفاً وثمانين فزعة للقتال لشكهم في وجوبه وذهاب بعضهم الى تحريمه .

وبعد ان توعّدوه بقتله كقتلة عثمان ، وأحاطوا به يلحون عليه في استدعاء الأشتر النخعي الذي كان يلاحق أعداءه مُستحصداً في ساحـــة الحرب على أمل في النصر القريب ..

والمؤرخون الذين صوبوا رأيه في التحكيم وخطئوه في قبول أبي موسى الأشعري ، على علمه بضعفه وتردده ، ينسون أن أبا موسى كان مفروضاً عليه ، كما فرض عليه التحكيم في لحظة واحدة .. وينسون ما هو أهم من

ذلك ، وهو ان العاقبة مُتشابهة سواء ناب عنه أبو موسى الأشعري أو ناب عنه الأشتر أو عبدالله بن عبــاس .. فان عمرو بن العــاص لم يكن ليخلع معاوية ويقر عليّاً في الخلافة ، وقصارى مــا هنالك أن الحكمين سيفترقان على تاييد كل منهما لصاحبه ورجعة الأمور الى مثل ما رجعت اليه . وان توهمّ بعضهم ان الأشتر أو ابن عبـاس كان قديراً على تحويل ابن العاص عن رأيه، والجنوح به الى حزب الامام ، بعد مساومته التي ساومها في حزب معاوية .. فليس ذلك على التحقيق بِمقنُع معاوية أن يستكين ويستسلم ، وجوله المؤيدون والمترقبون للمطامع واللبانات يعزُّ عليهم اخفاقهم كما يعزُّ عليه اخفاقه .

• • •

وما أسهل المخرج الشرعي الذي يلوذ به معاوية فيقبله منه أصحابه ويتابعونه على نقض حكم الحكمين المتفقين ؟ .. لقد كان النبي عليه السلام يقول عن عمار بن ياسر انه « تقتله الفئة الباغية » فلما قتله جند معاوية ، وخيفت الفتنة بينهم أن تلزمهم سبة البغي بشهادة الحديث الشريف — قال قائل منهم : إنما قتله من جاء بــه الى الحرب .. فشاع بينهم هـــذا التفسير العجيب ، وقبلوه جميعاً غير مُستثنى منهم رجل واحد .. أفلا يقبلون تفسيراً مثله اذا تحوّل ابن العاص ، وأفتى الحكماء بخلع معاوية ومبايعة الامام ؟

فليس في أيدي المؤرخين الناقدين اذن حل أصوب من الحل الذي

أذعن له الامام على كره منه ، سواء أذعن له وهو عالِم بخطئه أو أذعن له وهو يسوي بينه وبين غيره في عقباه .

ويبقى اعتزال الخلافـة من البداية ، وهو خطة ترد على الخاطر حيال هذه المعضلات التي واجهها الامام ، ولم يكن عسيراً عليه أن يتوقعها بعد مقتل عثمان وشيوع الفتنة والشقاق بين الأمصار كلها .. وشيوعها قبل ذلك بين جنده الذي يعوّل عليه .

ولكنها خطة سلبية لا يُمتحن بها رأي ولا عمل ،ولا ترتبط بها تجربة ولا فشل .. وكل مـا هنالك من أسباب ترجيحها انهـا أسلم للامام وآمن لسربه وأهدأ لباله ، وهو أمر مشكوك فيه .. على ما في طلب السلامة بين هذه الزعازع من اثره ، قلمـــا يرتضيها الشجاع الباسل أو الحكيم العامل .

فمن السّخف أن يخطر على البال ان رجلا كعليّ بن أبي طالب، يُترك وادعاً في سربه بين هذه الزعازع التي تحيط بالدولة الاسلامية في عصره..

ان تَرَكه الثوار وأعفوه من الحكم ، لم يتركه أصحاب السلطان ولم يُعفوه من الدسيسة والايذاء ، لاعتقادهم انـــه باب من أبواب الخطر الدائم ، وانه ما عاش فهو عَلَمٌ منصوب يفيء اليه كل ساخط وكل مصلح وكل مخالف على الدين أو على الدنيا . وقد قيل ان ابنـــه الحسن مات مسموماً في عهد معاوية خوفاً من لياذ الناس به ورجعتهم اليه . وقيل مثل

عن عبد الله بن خالد بن الوليد .. وما أعظم البون في المـــكانة والحساب بينهما وبين الامام عند أصحاب المخاوف وأصحاب الآمال .

***

ولعلنا نُقارب هذه الحقيقة من ناحية أخرى ، اذا رجعنا الى أقوال أبطال الميدان نفسه في علل النصر والهزيـــة ، وفيما يقال عن مزية كل منهم على خصمه أو مزية خصمه عليه .

فعليّ يسمع ما يقال عن شجاعته ورجحان معاوية عليه في الدهاء ، فيقول : « ... والله ما معاوية بأدهى مني ، ولكنه يغدر ويفجر ، ولولا كراهية الغدر لكنت من أدهى الناس .. »

أو يقول : « ولكنه لا رأيَ لمن لا يطاع »

ويعلل ما أصابه في بيعته بما أجمله لأتباعه حين قال لهم : « .. لم تكن بيعتكم أيايَ فلتة ، وليس أمري وأمركم واحداً .. اني أريدكم لله ، وأنتم تريدونني لأنفسكم »

ومعاوية يذكر الخصال التي أعين بها على علي ، فيقول : « انه كان رجلا لا يكتم سراً وكنت كتوماً لسرّي ،وكان يسعى حتى يفاجئه الأمر مناجاة وكنت أبادر الى ذلك ، وكان في أخبث جند وأشدهم خــلافاً . وكنتُ أحب الى قريش منه ، فنلت ما شئت ... »

وعمرو بن العاص يقول عن عدة النجاح في طلب الخــــلافة : « انه لا يصلح لهذا الأمر الا رجــــل له ضرسان ، يأكل بأحدهما ويطعم بالآخر » .

وهذه هي أسباب النصر والهزيمة على حقيقتها ، الا انها تظل ناقصة ما لم نقرنها بحقيقة أخرى ، وهي ان هزيمة معاوية كانت مُرجّحة ـ بل مؤكدة ـ لو انه وُضع في موضع عليّ ، وابتليَ بالأسباب التي ابتلي بها .

فالبلاد كله انما كان في خبث الأجناد وشدة خلافهم ، ولهذا كان سرّ عليّ يُعرف وسرّ معاوية يُكتم .. لأن معاوية يُطاع ونيته في صدره ، وعليّاً لا يطاع إلا اذا سُئِل عن نيته ومـــا يحل منها أو يحرم في رأي أتباعه . وكذلك كانت تُفاجئه الحوادث لأنه كان يروي فيها ما يروي ، ولا ينفذ من رويّته الا الذي ينساق اليه هو وأتباعه آخر المطاف بحكم الضرورة الحازبة ، وقد بَطُل الجدل وبطل من قبله التدبير ..

*

ولو ان معاوية كُتب عليه أن يحارب جنداً مطيعاً بجند عُصاة ، لما طمع في حظ أوفق من حظ عليّ في ذلك الصراع المتفاوت بين الخصمين .. ولو استعان بكل ما أُعين به من رشوة الأنصار وكيد الخصوم ، بل لعله كان يُخفق حيث أفلح قرنه على قدر ما بينهما من فارق في الشجاعـــة والسابقة الدينية ، وكذلك قال الامام : « ان لبني أمية مروداً يجرون

فيه ولو قد اختلفوا فيما بينهم ثم كادتهم الضباع لغلبتهم»

على اننا نود أن نقف عند الحد المأمون في تعليل النصر والهزيمة ، ولا نعدوه الى ما وراءه .. فليس من قصدنا أن نصف علياً بقوة الدهاء وسعة الحيلة ، ولكننا قصدنا أن نبرّئه من عجز الرأي وضعف التدبير ، لأن اسباب الهزيمة موفورة بغير هذا السبب الذي لا دليل عليه ..

فقوامُ الفصل بين الطرفين، انه لا دليل لدينا من الحوادث على عجز رأي ولا قوة دهاء .. ولو كانت قوة الدهاء صفة غالبة فيه لظهرت على صورة من الصور ، وان قامت الحوادث عائقاً بينها وبين النجاح .. فان الدهاء لا يُخفيه أن تكون المعضلة التي يعالجها محتومة الفشل مقرونة بالخذلان ..

ومما لا شك فيه ، ان علياً أشار بالرأي في مواقف كثيرة فأصاب المشورة، وانه وصف أناساً فدلَّ على خبرة بالرجال وما يغلب عليهم من الطباع والخصال ، وانه أخذَ بالحزم في توقع الحوادث واستطلاع الأمور ولكنه لزم الكفاية في ذلك ، ولم يتجاوزها الى الأمد الذي يسلكه بين الدُهاة الموسومين بفرط الدهاء ..

فمن مشوراته الصائبة ، انه نهى عمر رضي الله عنه أن يخرج لحرب الروم والفرس بنفسه ، فقال له : « انك متى تسر الى هذا العدو بنفسك فتلقهم فَتُنكب ، لا تكن للمسلمين كائنة دون أقصى بلادهم .. ليس

بعدك مرجع يرجعون اليه ، فابعث اليهم رجلاً مجرباً .. فان أظهر الله فذاك ما تحب ، وان تكن الأخرى كنت ردءاً للناس ومثابة للمسلمين »

***

ومن وصفه للرجال وأساليب تناولهم ، قوله لابن عباس وقد أرسله إلى طلحة والزبير : « لا تلقين طلحة ، فانك ان تلقه تلفِهِ كالثور عاقصاً – أي لاويا – قرنه يركب الصعب ويقول هو الذلول ، ولكن الق الزبير فانه ألين عريكة فقل له: « يقول لك ابن خالك عرفتني بالحجاز وأنكرتني بالعراق .. فما عدا مما بدا ؟ »

ومن حزمه انه كان يبثّ عيونه وجواسيسه في الشرق والغرب ليطلعوه على أخبار أعوانه وأعدائه ، وانه كان اذا وجبت الحرب بادر بالخروج ولم يأته التردد والابطاء بعد ذلك إلا من خلاف جُنده .

ومن معرفته للجماهير انه وصفهم أوجز وصف حين قال انهم أتباع كلّ ناعق ، وانهم « هم الذين اذا اجتمعوا ضرّوا واذا تفرقوا نفعوا » .. لأنهم اذا تفرقوا رجع أصحاب المهن الى مهنهم فانتفع بهم الناس ..

فهذا قسط من الرأي الصائب ، كافٍ لمهمة الحكم لو تصدّى به الامام للخلافة .. والعصر عصر خلافة وليس بعصر دولة دنيوية مضطربة في دَوْر تاسيسها وتلفيق أجزائها .

بل هو قسط كاف لمهمة الحكم في الدولة الدنيوية ، لو تولاهـــا بعد استقرارها والفراغ من مكائد تأسيسها .. كما جـاء عمر بن عبد العزيز في صلاحه وتقواه بعد الملوك الأولين من بني أمية .

ولكنه قسط من الرأي لا يسلك صاحبه بين اساطين الدُهـــاة الذين يكيدون بالرأي وبالعمل النافذ على السواء ..

ونعود بعد هذا ، فنقول انه لم يخسر كثيراً بما فاته من الدهاء .. ولم يكن ليربح كثيراً لو استوفى منه أوفى نصيب، لأنه لا بدمن ملك أو خلافة ..

ولن يكون ملكاً بادوات خليفة ، ولا خليفةً بادوات ملك ، ولن تبلغ به الحيلة أن يحارب رجلاً يريد العصر والعصر يريده ، لأنه عصر مُلكٍ تهيأت له الدواعي الاجتماعيـة ، وتهيأت له الرجل بخلائقه ونياتـه ومعاونة أمثاله .

* * *

ولم يكن معاويـة زاهـداً في الخلافة على عهد ابي بكر او عمر او عثمان ، ولكن الخلافة كانت زاهدة فيه .

فلما جاء عصر المُلك ، طلب المُلك والمُلك يطلبه .

وقديماً قال أبوه للعباس عم النبي ، وقد رأى جيش المسلمين في فتح

مكة : « لقد أصبح مُلك ابن أخيك عظيماً » .

فهو المُلك ، أو جاه الدنيا ، الذي تطلع اليـه من نشأته الأولى في بيته .. وانتظر ثم انتظر حتى لاقاه على قدر ، فوضع في موضعه وقام به الموضع كما قام به ، ونجحا معاً على التوافق والرفاء .

وحين وجب أن يقع الفصل بين الملك والخلافة ، وجب ان يكون على رأس فريق الخلافة .

وحين وجب ان يقع الفصل بين اصحاب المنافع الراغبين في دَوام المنفعة ،وبين اصحاب المبادىءوالظلامات الراغبين فيالتبديل والاصلاح ، وجب ان يكون على رأس هذا الفريق دون ذلك الفريق .

وحين وجب هذا وذاك وجوباً لا حيلة فيه للمتحوّل ، ولا اختيار فيه للمختار ، وجب أن تصير خلافة عليٍّ الى ما صارت اليه ، كائناً ما كان خطره من الدهاء والخدعة ، وكائناً ما كان طريقه الذي ارتضاه هو أو أشار به المشيرون عليه .

***

وقد يحسن بالمؤرخ بعد الموازنة بين عُدّة الخلافة وعدة الملك فيصراع عليّ ومعاوية ، أن يذكر عدة أخرى لم تظهر في هذا الصراع ، وقـــد ظهرت في مآزق شتّى من أحرج مآزق التاريخ ، واعتمد عليهـا أبطاله الكبار كثيراً في تأسيس الدول وقمْع الثورات ، فاختصروا الطريـــق

وأراحوا أنفسهم من عناء طويل ، ونريد بها عُـــدة البطش العاجل والمباغتة الحاسمة كلما تأشبت العُقد وتعسرت الحيلة ووجب الخلاص السريع ..

فقد علمنا مثلاً ان الأشعث بن قيس كان يعترض الامام في كل خطوة من خطوات النصر ، ويُثقل عليه باللجاجة والعنت في مواقف مُكربة تضيق بها الصدور .

ولم يكن الأشعث بن قيس بالوحيد في هذا الباب ، بل كان له شركاء من الخوارج وغير الخوارج ، يظهرون بالعنت في غير موضعه ويذهبون به وراء حدّه، وربما بلغوا من الضرر في معسكر الامـــام فوق مبلغ الأشعث بن قيس ، على عِظم الفارق بين سلطانهم وسلطانه .

ألا يخطر على البال هنا ، ان ضربة من الضربات القاضية كانت تنجع في هذا العنت المكرب حيث لا تنجع العقوبة الشرعيـــة او الأحاييل السياسية ؟ ..

ماذا لو ان الامـام جرّد سيفه بين أولئك المشاغبين ، واطاح برأس الأشعث بن قيس قبل ان يفيق احـد إلى نفسه، ثم ولىّ على الفور من يقوم مقامه في رآسة قومه ويكفل لهم الطاعة بينهم لأمره ؟.. أكان بعيداً ان تفعل الرهبة فعلها ، فيسكن المشاغب ، ويهـاب المتطاول ، ويجتمع المتفرق ، ويقل الخلاف بعد ذلك على الامام وعلى الرؤساء عامة ؟

لم يكن ذلك ببعيد . .

لكنه كذلك لم يكن بالمحقق ، ولا بالمأمون ..

فهي مجازفة ذات حدين، تصيب بأحدهما وقد تصيب بهما معا .. وقد يكون الحد الذي تصيب به هو الحد الذي قِبل الضارب دون الحد الذي من قبل المضروب ..

وكل ما تفيدنا اياه هذه الملاحظة العابرة على التحقيق، ان الامام رضي الله عنه لم يكن من أصحاب هذه المَلَكة التي اتصف بها بعض أبطال القلاقل في أيام الفصل بين عهدين متدابرين . فكانت له ضربة الشجاع ، ولم تكن له ضربة المغامر أو المقامر ..

ولم يضرب بالسيف قط ، كأنه يقذف بالقداح إما إلى الكسب واما الى الخسارة .. وانما كان يضرب به ضرب الجندي الذي يلتمس الغلب بقوته وقوة ايمانه ، ولا يلتمسه من جولات السهام وفلتات الغيب ..

على اننا ـ وقد سجلنا هذه الملاحظة ـ نفرض انه رضي الله عنه كان من أصحاب المَلَكة التي عرف بها بعض المغامرين في أوقات الفصل بين العهود ..

ونفرض انه عمد اليها ، فنفعته في عسكره وطوعت له الجند وأراحته من شغب الخارجين عليه والمتشعبين بالآراء والفتاوى من يمينه وشماله .

فماذا عسى أن يغيّر هذا كله من طبيعة الموقف الذي أجملناه ؟ ..

يكون المخرج بين سياسة الملك ، كما يطلبها العصر ، وسياسة الخلافة كما تطلبها البقية الباقية من آداب الفترة النبوية ؟

أَيسوس الامام دولته ملكاً دنيوياً أم يسوسها خليفة نبوّة ؟

أيفرق الأموال على رءوس القوم وقادة الجنـــد وطلاب الترف أم يلزمهم عيشة النسك والشظف والجهاد ؟

واذا حرمهم وتالبوا عليه مع خصمه ، أَفهو الغالب إذن بمطالب العصر ومقتضياته ودواعيه أم هم الغالبون ؟

واذا أعطاهم ليبذخوا بذخ الملك الدنيوي وهو وحده بينهم الناسك المجتهد على سنَّة النبوة ، أفيستقيم له هذا الدور العجيب وهو في جوهره متناقض لا يستقيم ؟ ..

فالسياسة التي اتبعها الامام هي السياسة التي كانت مقيضة له مفتوحة بين يديه ، وهي السياسة التي لم يكن له محيد عنها ، ولم يكن له أمل في النجاح ان حاد عنهـا الى غيرها .. سواء عليه اتفق جنده بضربة من الضربات القاضية أم لم يتفقوا على دأبهم الذي رأيناه ، وسواء لان لطلاب الدولة الدنيوية أم صمد على سنّة النبوة والخلافة النبوية .

***

ومهما يكن من حكم الناقدين في سياسة الامام ، فمن الجَوْر الشديد

أن يُطالب بدفع شيء لا سبيل الى دفعه ، وأن يُحاسب على مصير الخلافة وهي منتهية لا محالة الى ما انتهت اليه ..

ومن الجور الشديد ، أن يُلقى عليه اللوم لأنه باء بشهادة الخلافة ، ولا بد لها من شهيد ..

وقد تجمعت له أعباء النقائض والمفارقات التي نشأت من قبله ، ولم يكد يسلم منها خليفة من الخلفاء بعد النبي صلوات الله عليه ..

أحس بها الصدّيق ، فمات وهو ينحي على الصحابة ويحذرهم بوادر الترف الذي استناموا اليه . .

وأحس بها الفاروق وأثقلت كاهله ، وهو الكاهل الضليع بأفدح الأعباء . . فضاق ذرعاً بالحياة ، وطفق يقول في سنة وفاته: «اللهم كبرت سنّي وضعفت قوتي ، وانتشرت رعيتي ، فاقبضني اليك غير مضيع ولا مفرط . . اللهم ارزقني الشهادة في سبيلك »

وأحس بها عثمان، فما فارق الدنيا حتى ترك الخلافة والملك عسكرين متناجزين ، لا يرجع أحدهما الا بالغلبة على نده وضده . .

وكُتب لعليّ بعد ذلك أن يتلقى الدولة الاسلامية بين هذين العسكرين ، فلا في مقدوره أن يجمعها الى عسكر واحد ، ولا في مقدوره أن يختار منهما عسكر الملك ، ولا أن يختار عسكر الخلافة

الدينية فتظل على يديه خلافة دينية بعد أوانها ..

وما لم يكن في مقدوره لم يكن في مقدور غـيره ، وانه لإنصاف قليل أن نعرف له هذه المعاذير الصادقة ، وهو الذي باء وحده بتلك النقائض والأعباء ..

وقد نُقِدت سياسة عليّ لفوات الخلافة منه قبل البيعة . كما نُقدت سياسته لفوات الخلافة منه بعد البيعة ، وأحصى عليه بعض المؤرخين انه تاخر نيفاً وعشرين سنة .. فلم يخلف النبيّ ، ولم يخلف أبا بكر ، ولم يخلف عمرو .. كأنه كان مستطيعاً أن يخلف أحداً منهم بعمل من جهده وسعي من تدبيره ، فأعياه السعي والتدبير ..

ومقطع الفصل في هذا أن نرجع الى العوائق التي حالت بينه وبين الخلافة قبل وصولها اليه ، لنعلم منها العائق الذي كان في أيدي الحوادث والعائق الذي كان في يديه ، أو كانت له قدرة معقولة عليه .

* * *

فمما لا شك فيه ان الامام أنكر اجحافاً أصابه في تخطيه بالبيعة الى غيره بعد وفاة ابن عمه صلوات الله عليه ، وانه كان يرى ان قَرابته من النبي مزيّة ترشحه للخلافة بعده لأنها فرع مِنَ النبوة على اعتقاده ، وهم شجرة النبوة ومحطّ الرسالة ، كما قال ...

ومما لا شك فيه ، ان شعوره هذا طبيعيّ في النفس الانسانية كيفما

كان حظها من الزهد والقناعة ، لأن تخطّيه ـ مع هذه المزية التي ترشحه للبيعة ـ يشبه أن يكون قَدْحاً في مزاياه الأخرى ، من علم وشجاعة وسابقة جهاد وعفة عن المطامع ، أو يشبه أن يكون كراهة له وممالأة على الغضّ من قدره ، ولم يزل من غرائز النفوس أن يسوءها القَدْح فيها والحط من مزاياها ومواجهتها بالنفرة والكراهة ..

إلا أن الخلافة الاسلامية ، مسالة عالمية لا توزن بميزان واحد ، ولا يؤتم فيها برأي واحد ولا بحق واحد . وقد يضحى في سبيلها بالعظيم والعظماء ، اذا تعارضت الحقوق وتشعبت الآراء ..

ويشاء القدر أن تكون المزية الأولى في ميزان عليّ هي العائق الأول في سائر الموازين، ومنها ميزان النبي صلوات الله عليه ..

فقد كان عليه السلام يأبى أن يثير العصبيات في قريش ، وفي القبائل العربية عامة ، لعلمه بخطر هذه العصبية على الدعوة الجديدة ، وكراهته أن يصور الاسلام للعرب كأنه سيادة هاشمية تتوارثها عصبة هاشم دون العصب من سائر العرب والمسلمين . وقد رضي في سبيل هذا المقصد الحكيم ، أن يجعل بيت أبي سفيان صنواً للكعبة في أمان اللاجئين اليه ، وأصهر الى أبي سفيان وندب ابنه معاوية للكتابة له بين النخبة المختارة من كاتبيه ، وربما حسن لديه ان تئول الخلافة الى عليّ بعده اذا شاء المسلمون ذلك ، ولكن على أن تكون خلافته اختياراً مرضياً كاختيار

غيره من أنصاره وأصحابه ، ويستوي منهم القريب والبعيد .

* **

ولم تكن الحكمة النبوية هي وحـــدها التي تابى اثارة العصبيات وتصوير الاَسلام للعرب وللناس عامـة في صورة السيادة الهاشمية ، بل كانت الدعوة كلها في صميم أصولها تابى هـذا الذي أبته الحكمة النبوية وتجتنبه غاية ما في وسعها اجتنابه .. لأن الدعوة الاسلامية دعوة عالمية ، تشمل الأمم كافة من عرب الى عجم ومن مشرق الى مغرب ، وتقوم في أساسها على المساواة بين الناس وردّ المفاضلة بينهم الى الأعمال والأخلاق دون الأحساب والأعراق . فليس من المعقول أن تسود العالم كله أسرة هاشمية ، ولا من المعقول أن يبنى الأساس على المساواة ، وأن يقـــام الحـكم على هذا التفضيل ..

وان أحق الناس أن يفطن الى هذه الحكمة لهم أولئك الغلاة الذين زعموا ان وراثة الخلافة في بني هاشم حكم من أحكام الله وضرورة من ضرورات الدين ..

فلو أنها كانت حكماً من أحـــكام الله ، لكان أعجب شيء أن يموت النبي عليه السلام وليس له عقب من الذكور ، وأن يختم القرآن وليس فيه نص صريح على خلافة أحد من آل البيت ..

ولو انها كانت ضرورة من ضرورات الدين ، أو ضرورات القضاء ،

لنفذت في الدنيا كما ينفذ القضاء المبرم، و حبطت كل خلافة تنازعها كما تحبط كل بدعة تناقض السنن الكونية ..

فلا النصوص الصريحة ، ولا دلالة الحوادث على الارادة الآلهية ، مما يؤيد أقوال الغُلاة عن ترجيح الخلافـــة بالقرابة ، أو حصر الخلافة في الأسرة الهاشمية ..

وهذا هو العائق الأول الذي حال بين عليّ وبين الخلافة ولا قدرة له عليه ، وقد لحظه العرب ولحظته قريش خاصة ، وذكره الفاروق حين قال : « ان قريشاً اختارت لنفسها فابت أن تجمع لبني هاشم بين النبوة والخلافة » .

* * *

ويرى بعض المؤرخين ، ان قريشاً كانت تحقد على الامام وتنحيه عن الخلافة لعلّة أخرى تقترن بهذه العصبية التي أوقعت التنافس بين بيوتها وبين بني هاشم ، فقد بطش الامـــام بنفر من جلة البيوت القرشية في حروب المسلمين والمشركين ، وقتل من أعلام بني أمية وحدهم عتبة بن ربيعة جد معاوية ، والوليد بن عتبة خاله وحنظلة أخاه ، وجميعهم من قَتْلَاه في يوم بدر .. عدا من قتلهم في الوقائع والغزوات الأخرى،فحفظ أقاربهم له هذه التراث بعد دخولهم في الاسلام ، وزادهم حقـــداً انهم لا يملكون الثأر منه لقتلاهم من الكفار . وكانت حاله بعد تلك المـــدة كما

قال ابن أبي الحديد : « ... كأنها حاله لو أفضت الخلافة اليه يوم وفاة ابن عمه ، من اظهار ما في النفوس وهيجان ما في القلوب، حتى الأخلاف من قريش والأحداث والفتيان الذين لم يشهدوا وقائعه وفتكاته في أسلافهم وآبائهم ، فعلوا به ما لو كانت الأسلاف أحياء لقصرت عن فعله » .

وقد علم الامام هذا من قريش ، عندما يئس من مودتها وابتلي بالصريح والدخيل من كيدها ، فقال : « .. ما لي ولقريش ؟.. أما والله لقد قتلتهم كافرين ولأقتلنهم مفتونين .. والله لأبقرن الباطل حتى يظهر الحق من خاصرته .. فقل لقريش ، فلتضج ضجيجها » .

ولو أن قريشاً وادعته في سرّها وجهرها ، ووقفت بينه وبين منافسيه على الخلافة لا تصده عنها ولا تدفعهم اليها ، لقد كانت تلك عقبة أي عقبة ..

فأما وهي تحاربه بعصبيتها وتحاربه بذحولها ، فتلك هي العقبة التي لا يذللها الا بحزب أقوى من حزب قريش بعد وفاة النبي صلوات الله عليه ، ولم يكن حزب قط أقوى يومئذ من قريش في أرجاء الدولة الاسلامية بأسرها ..

ولقد سبق الامام الى الخلافة ثلاثة من شيوخ الصحابة هم : أبو بكر وعمر وعثمان ..

فاذا نظرنا الى عائق العصبية الذي قدمناه ، فلا نرى شيئاً أقرب الى طبائع الأمور من سَبق هؤلاء الثلاثة باعيانهم الى ولاية الخلافة بعد النبي عليه السلام ، لأنهم أقرب الناس أن يختارهم المسلمون بعد خروج العصبية الهاشمية من مجال الترجيح والترشيح .

فليس أقرب الى طبائع الى الأمور في بلاد عربية اسلامية من اتجاه الأنظار الى مشيخة الاسلام في السن والوجاهة والسابقة الدينية ، لاختيار الخليفة من بينها على السنّة التي لم تتغير قط في تواريخ العرب الأقدمين ، ولم يغيرها الاسلام بحكم العادة ولا بحكم الدين .

***

ولم يكن الامام عند وفاة النبي من مشيخة الصحابة التي تئول اليها الرئاسة بداهة بين ذوي الأسنان ، ممن مارسوا الشورى والزعامة في حياته عليه السلام .. لأنه كان يومئذ فتى يجاوز الثلاثين بقليل . وكان أبو بكر وعمر وعثمان قد لبثوا في جوار النبي بضع عشرة سنة قبل ظهور عليّ في الحياة العامة ، وهم يشيرون على النبي ويخدمون الدين ويجمعون الأنصار ويُدَان لهم بالتوقير والولاء ..

والعائق الذي قام بين عليّ وبين الخلافة هو في طريق هؤلاء الثلاثة السابقين تمهيد وتقريب ..

ونعني به عائق العصبية الهاشمية ..

لأن قريشاً لا تنفس على بني تيم ، ولا بني عدي ، ولا بني أمية ، في رئاسة عثمان خاصة .. كما تنفس على بني هاشم ، اذ تجتمع لهم النبوة والخلافة .

والامام نفسه لم يفته أن يدرك هذا بثاقب نظره ، حين قال وقد تجاوزته الخلافة للمرة الثالثة بعد موت الفاروق : « ان الناس ينظرون الى قريش ، وقريش تنظر الى بيتها فتقول : « ان ولي عليكم بنو هاشم لم تخرج منهم أبداً .. وما كانت في غيرها من قريش تداولتموها بينكم » .

***

واذا اجتمع هذا العائق الى عائق السن والتوقير للمشيخة المقدمة ، فهما مُبعِدان للامام عن الخلافة بمقدار ما يقربان سواه ..

نعم ان فارق السن قد تقارب بعد موت الفاروق ، وبلغ الامام الخامسة والأربعين ، وسبقت له في المشورة سوابق مأثورات .. فأصبح الفارق بينه وبين من يكبرونه مزية تعين على العمل والجهد وتنفي مظنة الضعف والتواكل . ولكن الذي كسبه بهذه المزية خسره بازدياد المطامع الدنيوية ويأس الرؤساء من الوفر والنعمة على يديه ، واعتقاد الطامعين أنهم أقرب الى بعض الأمل في لين عثمان وتقدم سنّه منهم الى أمل من الآمال في شدة الامام وعسر حسابه ..

وبقيت الجفوة بينه وبين قريش على حالها ، لم يكفكف منها تقادم العهد كما قال ابن أبي الحديد ..

وعلى هذه الجفوة في القبيلة كلها ، دخلت في الأمر دخلة البواعث الشخصية التي لا يسلم منها عمل من أعمال بني الانسان في زمن من الأزمان .. فقد اجتمع رهط الشورى الذين ندبهم الفاروق لاختيار الخليفة من بعده ، فتقدم بينهم عبد الرحمن بن عوف فخلع نفسه من الأمر كله ليتاح له أن يستشير الناس باسمهم ويعلن البيعة على عهدتهم . وقيل انه أنس من الزبير وسعد بن ابي وقاص ميلا موقوتاً الى عليّ وانحرافاً موقوتاً عن عثمان ، فسارع الى المنبر وبايع عثمان وجاراه الحاضرون مخافة الفتنة والشقاق ..

وكان عبد الرحمن بن عوف صهراً لعثمان ، لأنه زوج أخته لأمّه أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط .

***

ويقضي الحق أن يقال في هذا المقام ان بيعة عثمان قد تمت باتفاق بين المسلمين لم ينقضه خلاف معدود ، فليست كلمة عبد الرحمن بن عوف هي التي خذلت علياً وقدمت عثمان عليه ، اذ لو كانت هناك مغالبة شديدة بين حزبين متكافئين لما استقامت البيعة لعثمان بكلمة من عبد الرحمن ابن عوف .. وهو واحد من خمسة أو ستة اذا أشركنا معهم عبد الله بن

عمر بن الخطاب ..

ثم بويع الامام بعد مقتل عثمان ، فهل تحولت قريش عن جفوتها ، أو نظرت الى السياسة الهاشمية نظرة غير نظرتها ؟

كلا ...

بل جاءت البيعة في المدينة ، يوم خفت فيها صوت قريش ،وهبطت سمعة حكامها .. يوم أصبحت البيعة ثورة على قريش ، تنكر عليها الأثرة بالملك والاثرة بالغنائم والأمصـــار .. ويوم انقسم المجتمع الاسلامي قسميه اللذين التبسا وتداخلا حيناً حتى فصلتها الحوادث فصلها الحاسم في خلافة عثمان : قسم يريد الرجعة الى الخلافة والآداب النبوية ، وقسم يريد المضي في الملك والدولة الدنيوية ..

فأي القسمين ، كان قسم عليٌّ كائنـاً ما كان سعيه واجتهاده ؟ وأية سياسة كانت تعينه على مشكلة الخلافة منـــذ بدايتها بعد وفاة النبي الى ختامها الفاجع بعد مقتل عثمان ؟

وكل سياسة له لم تكن لتحيد به عن الخاتمة المحتومة أقل محيد .

وكل ما كان من تدبير الحوادث أو من تدبيره ، فهو على هذا الملتقى الذي يتلاحق عنده الاسراع والابطاء ..

وعلى هذا ينبغي أن نرجع الى عِلّة غير سياسة عليّ لتعليل

العوائق التي قامت دون مبايعته بالخلافة قبـــل الصدّيق والفاروق وعثمان ..

فهو غير مسئول عن نظرة العصبية التي نظرت بها قريش الى السيادة الهاشمية ..

وهو غير مسئول عن سنه التي تأخرت به عن مشيخة الصحابـة من ذوي السابقة في الجهاد والزعامة والأصالة بين ذوي الأسنان والأخطار ..

وهو غير مسئول عن الصفة العالمية التي جعلت تأسيس الاسلام على أسرة واحدة في العالم كله أمراً ملحوظاً بالتوجس والاحجام منذ اللحظة الأولى ..

نعم قد يسأل الامام عن علاقته بالنـــاس وقدرته على تألفهم بالآمال والمجاملات ، ليأنسوا اليه ويرفعوا حجاب الجفوة بينهم وبينه ،ويؤثروه على غيره بالخلافة ، أملا في برّه واطمئناناً الى حفاوته ووده .

وقد يرد على بعض الخواطر ، ان سياسة الدولة الدنيوية أو سياسة الارضاء بالمنافع والوعود ، كانت أجدى عليه من آداب الخلافـة الدينية وأخلق بتمكينه أولاً وآخراً بين قريش وقبائل العرب عامة ..

فهذا في رأيهم مأخذ يرجع الى شخصه وأعماله ، ويُسأل عنه كما يسأل

الانسان عن عمله وتصريف إرادته وفكره . ولا يجوز أن نرجع به الى حكم الحوادث القاهرة ، وسلطان المصادفات التي لا قبل له بتبديلها .

ولكن الواقع ان هذه السياسة - سياسة المنافع الدنيوية - لم تكن لتجديه شيئاً بعد وفاة النبي ، ولا بعد مقتل عثمان ..

فبعد النبي عليه السلام ، لم تكن ذخائر الفتوح قد استفاضت في الأيدي وأنشات في المجتمع الاسلامي طبقة مسموعة الصوت تحرص عليها وتستزيدها ..

فالذي يناضل في سبيل الحكم بسلاح هذه المنافع ، انما كان يناضل بسلاح غير موجود .. بل كان يناضل سلاحاً ماضياً ينهزم أمامه لا محالة وهو سلاح الحماسة الدينية التي غَلَبَتْ في ضرباتها الأولى كل سلاح .

أما بعد مقتل عثمان ، فابعد الأمور عن التخيّل أن يغلب عليّ معاوية في سوق المنافع الدنيوية ، لأن معاوية قد أهب لها أهبته قبل عشرين سنة ، وجمع لها أنصاره وكنز لها كنوزه في بلاد وادعة بين جند مطيع .

ولو توافرت لعليّ مادة هذه السياسة، لما توافر له أعوانها والمساعدون عليها .. فليس أقل نفعاً في هذا المضمار من اعوانه الذين ثاروا على سياسة

المنافع وباءوا من أجلها بدم خليفة ، واجتمعوا على التمرد قاصدين أو غير قاصدين •• فلا يديرون أنفسهم الى نهج كنهج معاوية ولو أرادوه.

وأغلب الظن ان علياً كان يخسر بهذه السياسة أولئك الذين أحبوه ، ولا يربح بها أولئك الذين أبغضوه .

فقد حببته آداب الخلافة إلى كل طبقة تكره استغلال الحكم ، ولا مطمع لها فيه .. فكل بلاد خلت من عصبة المرشحين للحكم ، فقد كانت من حزبه وشيعته بغير استثناء ، فكان من حزبه شعب اليمن ومصر وفارس والعراق ، ونشأت في اليمن ـ وقد عهدت حكمه قديماً ـ تلك الطائفةالسبئية التي غلت في حبه حتى ارتفعت به الى مرتبة التقديس ، وانتشرت في مصر وفارس بذور تلك الشيعة الفاطمية والامامية التي ظلت كامنة في تربتها حتى أخرجت شطأها بعد أجيال، وشذّت الشام لأنها كانت في يد معاوية ، وشذّت أطراف من العراق أول الأمر لأنها كانت في يد طلحة والزبير ، ولم يشذّ عن هذه القاعدة بلد من البلدان الاسلامية من أقصاها الى أقصاها .. فلولا ان سواد النـاس لا يعملون بغير عصبة من القادة ، وان العصب من القادة كانوا كلما وُجدوا في بقعة من البقاع وُجد معهم النفع والاستغلال.. لقد كانت محبة أولئك السواد أنفع من عصب معاوية أجمعين ..

فاغلب الظن ـ كما أسلفنا ـ ان عليّا كان يخسر هؤلاء باتباعه سياسة الدولة الدنيوية ، ولا يكسب العصب التي ناصبته العداء ، وأيقنت انه

حائل بينها وبين ما طمحت اليه من الصولة والثراء ..

وهذا على تقدير المقدرين ان عليّاً يؤاخذ لاجتنابه هذه السياسة ، وانه لو اتبعها لكانت أجدى عليه ..

وليست هي أجدى عليه لو اتبعها ، ولا هو على اجتنابها بملوم ..

وتفضي بنا هذه التقديرات جميعاً الى نتيجة واضحة نلخصها في كلمات وجيزة ، ونعتقد انها أعدل الأقوال في وصف تلك السياسة التي كثرت فيها مطارح النقد والدفاع ..

فسياسة عليّ لم تورطه في غلطات كان يسهل عليه اجتنابها باتباع سياسة أخرى ..

وهي كذلك لم تبلغه مآرب مستعصية، كان يعز عليه بلوغها في موضعه الذي وضع فيه وعلى مجراه الذي جرى عليه ..

فليست هي علّة فشل منتزع ، ولا علة نجاح منتزع ، أو هي لا تستدعي الفشل من حيث لم يخلق ، ولا تستدعي النجاح من حيث لم يسلس له قياد ..

ورأينا في سياسته فهماً وعلماً ، ولكننا لم نر فيها الحيلة العملية التي هي الى الغريزة أقرب منها الى الذكاء ..

فكان نعم الخليفة ، لو صادف أوان الخلافة . .

وكان نعم المَلِك لو جاء بعد توطيد المُلْك واستغنائه عن المساومة والاسفاف . .

ولكنه لم يات في أوان خلافة ولا في أوان مُلك موطد ، فحمل أعباء النقيضين ، واخفق حيث ينبغي أن يخفق أو حيث يعييه أن ينجح .. وتلك آية الشهيد ..



٧

حكومته

كانت الدولة الاسلامية الناشئة على شفا الخطر في إبان الفتنة الداخلية بين علي ومعاوية .. ولكنها وقيت منه لأن عوامل الأمان الذي يحيط بها كانت أقوى من عوامل الخطر الذي يهددها .. وتتلخص عوامل الأمان في وقاءين اثنين :

أحدهما ، ان الاسلام كان دعوة طبيعية تلقاها العالم وهو مستعد لها مستريح اليها ، فرسخت دعائمه وامتنعت حدوده بعد أعوام قليلة من ظهوره ، وسكن اليه الناس مؤمنين بدوام ظله وشمول عدله ، سواء منهم من دخل فيه ومن أوى الى حُكمه وهو باقٍ على اعتقاده..

وثانيهما ، ان أعداء الاسلام كانوا في شاغل عنه بما أصابهم من الوهن وأحدق بهم من المخاوف ، وربما صحّ في الفتنة الاسلامية يومئذ ما يصح في كثير من الطوارق التاريخية الكبرى ، وهي انها لن تكون شراً محضاً

في جميع عواقبها ، ولا تخلو من الخير على غير قصد من ذويها .. فإن هذه الفتنة قد أغرت أعداء الاسلام بالانتظار ، وأوقعت في روعهم انهم غنيون عن التحفز والوثوب الذي يشق عليهم جهده ، وهم في تلك الحالة من الجهد والإعياء .. فقنعت دولة الروم بهجمات ضعيفة تلقاها معاوية بالجلد والأناة ، وألهى القوم عنه ببعض الأتاوات والنوافل .. فتراجعوا متربصين الى أن يقضي الخلاف بين المسلمين قضاءه ، وهم وادعون مكفيون شر القتال .. فكان هذا الانتظار الخادع جانباً من جوانب الخير في الفتنة الاسلامية التي فاضت يومئذ بالشرور .

وعلى هذا انقضت أيام ، عليّ وليس للحكومة الاسلامية سياسة خارجية تحسب من سياسة الفتوح ، أو سياسة الدفاع ، أو سياسة المفاوضة والاستطلاع ..

وكل ما يدور الكلام عليه عن حكومة عليّ ، فهو من قبيل سياسة الحكم بينه وبين رعاياه ، أو هو السياسة الداخلية كما نسميها في العصر الحديث ..

***

ومن اليسير أن نعرف سياسة الامام بينه وبين رعاياه ، بغير حاجة الى الاطالة في التعريف وسرد الأمثال ..

لأنها سياسة الرجل الذي شاء القدر أن يجعله فدية للخلافة الدينية في نضالها الأخير مع الدولة الدنيوية .

فنحن نتخذ ما شئنا من طريقين متقابلين ، فاذا طريق عليّ هي طريق الخلافة المنزهة ، حين تقابل الدولة الدنيوية مقابلة الخصم للخصم أو النقيض للنقيض ، أو هي أقرب الطريقين الى المساواة وأدناهما الى رعاية الضعفاء .

فالناس في الحقوق سواء ..

لا محاباة لقويّ ولا اجحاف بضعيف ، وقد عمد الى القطائع التي وزعت قبله على المقربين والرؤساء ، فانتزعها من القابضين عليها وردها إلى مال المسلمين لتوزيعها بين من يستحقونها على سنّة المساواة ، وقال : « والله لو وجدته قد تزوج به النساء وملك به الاماء لرددته ، فان في العدل سعة .. ومن ضاق عليه العدل فالجور عليه أضيق »

وفرض الرفق بالرعية على كل والٍ ،فلا ارهاق ولا استغلال ولو كانت الحكومة هي صاحبة الحق في المال .

فمن وصاياه المكررّة لِوُلاته :« انصفوا الناس من أنفسكم واصبروا لحوائجهم فانهم خزان الرعية . . ولا تحسموا أحداً عن حاجته ولا تحبسوه عن طلبته ، ولا تبيعُن للناس في الخراج كسوة شتاء ولا صيف ولا دابة يعتملون عليها ، ولا عبداً ، ولا تضربن أحداً سوطاً لمكان درهم ...»

ومن وصاياه في تحصيل الخَرَاج والصدقات : « .. امض اليهم

بالسكينة والوقار حتى تقوم بينهم فتسلم عليم ، ولا تخدج بالتحية لهم ، ثم تقول : عباد الله . أرسلني اليكم وليُّ الله وخليفته لآخذ منكم حقّ الله في أموالكم ، فهل لله في أموالكم حق فتؤدوه الى وليّه ؟ .. فان قال قائل: لا ، فلا تراجعه .. وان أنعم لك مُنعم ، فانطلق معه من غير أن تخيفه وتتوعده أو تعسفه أو ترهقه ، فخذ ما أعطاك من ذهب أو فضة ، فإن كان له ماشية أو إبل فلا تدخلها الا بإذنه ، فان أكثرها له .. فاذا أتيتها فلا تدخل عليها دخول متسلط عليه ولا عنيف به .. ولا تنفرن بهيمة ولا تفزعها ، ولا تسُوءن صاحبها فيها ، وأصدع المال صدعين ، ثم خيِّره ، فاذا اختار فلا تعرضن لما اختاره، فلا تزال كذلك حتى يبقى ما فيه وفاء حق الله في ماله .. فاقبض حق الله منه ، فان استقالك فأقله .. » .

وكان دستوره في تحصيل الضرائب المفروضة على الناس ، ان النظر في عمارة الأرض أبلغ من النظر في استجلاب الضريبة ، فكان يكتب الى واليه : « تفقّد أمر الخراج بما يصلح أهله .. فان في صلاحه وصلاحهم صلاحاً لمن سواهم ، ولا صلاح لمن سواهم الا بهم .. لأن الناس كلهم عيال على الخرَاج وأهله، وليكن نظرك في عمارة الأرض أبلغ من نظرك في استجلاب الخراج ، لأن ذلك لا يُدرك الا بالعمارة ، ومن جلب الخراج بغير عمارة أخرب البلاد وأهلك العباد ، ولم يستقم أمره الا قليلا ، وانما يؤتى خراب الأرض من اعواز أهلها ، وانما يعوز أهلها

إسراف الولاة الجمع ، وسوء ظنهم بالبقاء وقلة انتفاعهم بالعبر ..»

أما دستوره في الولاة والعمال ، فخلاصته ما كتب بـه إلى الأشتر النخعي يقول له : « انظر في أمور عمالك ، فاستعملهم اختباراً ولا تولهم محاباة وأثرة .. فانهم جماع من شعب الجور والخيانة ، وتوخ منهم أهل التجربة والحياء من أهـل البيوتات الصالحة والقدم في الاسلام ، فانهم أكثر أخلاقاً وأصح اعراضاً وأقل في المطامع اسرافاً ، وأبلغ في عواقب الأمور نظراً .. ثم أسبغ عليهم الأرزاق ، فان ذلك قوة لهم على استصلاح أنفسهم ، وغنى لهم عن تناول ما تحت أيديهم ، وحجة عليهم ان خالفوا أمرك أو ثلموا أمانتك ، ثم تَفَقّد أعمالهم وابعث العيون من أهل الصدق والعيون عليهم .. فان تعاهدك في السر لأمورهم حدوة لهم على استعمال الأمانة والرفق بالرعية »

وعلى هذه العناية باستطلاع أحوال الولاة والعمال، كان ينهى أشد النهي عن كشف معائب الناس ، أو كما كان يقول في وصية ولاتـه : « وليكن أبعد رعيتك منك وأشناهم عندك أطلبهم لمعائب الناس .. فان في الناس عيوباً ، الوالي أحق من سترها .. فلا تكشفن عما غاب عنك منها ، فانما عليك تطهير ما ظهر لك »

وكان ينهى عن بطانة السوء مع حثّه على اتخاذ العيون والجواسيس ، فقال في وصيته لمحمد بن أبي بكر : « لا تدخلن في مشورتك بخيلاً يعدل بك عن الفضل ويعدك الفقر ، ولا جباناً يضعفك عن الأمور ، ولا حريصاً

يزين لك الشره بالجور .. فان البخل والجبن والحرص غرائز شتى يجمعها سوء الظن بالله .. ان شر وزرائك من كان للاشرار قبلك وزيراً ، ومن شركهم في الآثام فلا يكونن لك بطانة ، فانهم أعوان الأثمة واخوان الظلمة ، وأنت واجد منهم خير الخلف ، ممن له مثل آرائهم ونفاذهم .. وليس عليه مثل آصارهم وأوزارهم » ..

ولم ينكر قط شيئاً من سياسة التولية ، ثم صنع مثله في عهده ، على كثرة الاغراء حوله باصطناع التُقية والمداراة والهوادة قليلا مع الأقرباء وذوي الأخطار ..

ومن زعم غير ذلك ، من ناقديه في عصره أو بعد عصره ، فانما هو آخذ في المقارنة بالأشكال والحروف دون البواطن والغايات ..

إذ كان مما قيل مثلا ان علياً أقام عبد الله بن عباس على البصرة ، وعبيد الله بن العباس على اليمن ، ومحمداً بن أبي بكر ابن زوجته على مصر .. وهم أقرباؤه وخاصة أهله ، فهو اذن يصنع ما أنكره على حكومة عثمان من إيثار الأقرباء بالولايات واقصاء الآخرين عنها ..

ولكنها كما قلنا مقارنة بالأشكال والحروف دون البواطن والغايات ، لأن المقارنة الصحيحة بين العملين تُسفر عن فارق بعيد كالفارق بين النقيض والنقيض ..

فبنو هاشم لم يكن لهم متسع لعمل أو ولاية في غير حكومة الامام ،

ولم يكن للامـــام معتمد على غيرهم بعد أن حاربتـــه قريش ، وشاعت الفرقة والشغب بين أعوانه من أبناء الأمصار ..

وهم مع هذا لم يؤثروا بالولايات كلهـــا ، ولم يؤثروا بالذي خصهم منها ليستغلوه ويجمعوا الثراء من غنائمه وارزاقه .. بل كانوا يحاسبون على ما في أيديهم أعسر حساب ، وكانوا لتضييقه عليهم في المراقبـــة يتركون ولاياتهم ويستقيلون منها ، كما فعل ابن عباس حين هجر البصرة الى مكة ..

وقد بلغ من حسابه للوُلاة انـه كان يحاسبهم على حضور الولائم التي لا يجمل بهم حضورها .. فكتب الى عثمان بن حنيف الانصاري عامله على البصرة : « أما بعد يا ابن حنيف ، فقد بلغني ان رجلا من فتية أهـل البصرة دعاك الى مادبة..فاسرعت اليها تُستطاب لك الألوان وتنقل اليك الجفان. وما ظننتُ انك تجيب الى طعام قوم عائلهم مجفو وغنيّهم مدعو، فانظر الى ما تقضمه من هذا المقضم.. فما اشتبه عليك علمه فالفظه ومـا أيقنت بطيب وجوهه فنل منه » .

واستكثر على شريح قاضيه أن يبني داراً بثمانين ديناراً ، وهو يرزق خمسمائة درهم . . وحاسب على أقل من هذا من هو أقل من شريح أمانة في القضاء وحرجاً في الدين . .

فلو أن الامام اختص أقرباءه بالولايات التي يحاسَبون عليها هـــذا

الحساب ، لما كان في اختصاصه اياهم مُستبيح حق ولا مُستبيح مـال . . فكيف وهو لا يختصهم الا بالقليل منها ، ولا يختصهم وله منـــدوحة عنهم ، أو يختصهم وهم دون غيرهم في القدرة والأمانة ؟

فالمقارنة هنا مقارنة أشكال وحروف ، وكل ما توحي الى الناقد بها أنه يذكر الأقرباء هنا والأقرباء هناك ..

وقد انقسمت طريق الخلافة ، وطريق الدولة الدنيوية في كل أمر من الأمـور على عهد الامـام ، ولم تنقسم في مسالة الولاة أو مسالة الاستغلال ٠

وأكبر ما يذكر من انقسام الطريقين في عهده قيام الفكرة العالمية الى جانب العصبية بالقبيلة أو بالوحدة الوطنية ..

فالدولة الدنيوية تشد أزرها بالعصبية الجنسية ، والخلافة الدينية تشد ازرها بالأخاء بين الشعوب وبطلان الفوارق بين الأجناس ..

وقد كانت القبيلة من انصار الامام ، تقاتل القبيلة من أنصار معاوية في سبيل الرأي والعقيدة ..

وكان أنصار الامام أبداً من الفرس والمغاربة والمصريين أكثر من أنصاره بين قريش خاصة ، وبين بني هاشم على الأخص ، وبين قبائـل العرب على التعميم . .

وهذا الامتزاج بين الفكرة العالمية وبين امامة عليّ أو خلافته ، هو

أقطع الأدلة على الوحدة بين أوانه وأوان الخلافة . . فاذا ذهب هـذا وجب إن يذهب ذاك ، أياً كانت السياسة المتوخّاة ، وبالغاً ما بلغ نصيبها من السواد والصواب . .

ولنا أن نعمم هذا الحكم الانساني في كل شان من شئون الحكومة ، قضى به عليّ في عهده أو عهود الخلفاء من قبله . .

فالروح الانساني هو قوام الحكومة الإمامية ، كما ينبغي أن يكون ، وهو قوامها كما كانت على يديه جهد الطاقة الآدمية . . وهي طاقة لها ما لها من حدود . .

جيء الى عمر بن الخطاب بامرأة زانية يُشتبه في حملها ، فاستفتى الامام . . فأفتى بوجوب الابقاء عليها حتى تضع جنينها ، وقال له : « ان كان لك سلطان عليها فلا سلطان لك على ما في بطنها » .

وانتزع امرأة من أيدي الموكلين باقامة الحد عليها .. وساله عمر فقال : « أما سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : رفع القلم عن ثلاثة : عن النائم حتى يستيقظ ، وعن الصغير حتى يكبر ، وعن المبتلى حتى يعقل؟ » قال : « بلى » قال : « فهذه مبتلاة بني فلان .. فلعله أتاها وهو بها » قال عمر : « لا أدري » قال : « وأنا لا أدري » فترك رجمها للشك في عقلها ..

وأتى عمر بامرأة أجهدها العطش ، فمرّت على راعٍ فاستسقته .. فابى أن يسقيها الا أن تُمكّنه من نفسها .. ففعلت ، فشاور الناس في

رجمها ، فقال عليّ : « هذه مضطرة الى ذلك .. فخلّ سبيلها »

وهـــذه أمثلة قليلة من أمثلة كثيرة في القصاص وتفسير الشريعة ..

إلا انه قد حاد عن هذه السنّة في أمر واحد خالفه فيه بعض فقهاء عصره ، ومنهم ابن عمه عبدالله بن عباس .

وذلك هو احراقه الروافض الذين عبدوه ووصفوه بصفات الآلهة ، وأبوا أن يتوبوا عن ضلالتهم مرة بعـــد مرة ، وقيل انهم أصروا على عنادهم وهم يحرقون .. فاتخذوا من تعذيبـه لهم بالنار دليلاً على انه هو الإله المعبود.. اذ لا يعذب بالنار الا الله .

فهؤلاء المفسدون والمفتونون،قد استحقوا عقوبةالموت بقضاء الشريعة وقضاء الدولة التي لا يقوم لها نظام على هذه الضلالة . . ولكن الاحراق بالنار صرامة لا توجبها ضرورة العقاب ، وليس في اجتنابها خطر على الشريعة ، ولا على النظام ..

انما شفيـع الامام في هـــذه الصرامة انه كان هو المستهدف لتلك الضلالة ، وهو مظنة الريبة في الهوادة فيها .. فهو ينزه عدله عن كل ظن حيث تُظن بالهوادة جميع الظنون ، وقد أحرق الذين ألّهوه..ونهى عن قتـــال الخوارج الذين حكموا بكفره ، الا أن يفسدوا في الأرض أو يبدءوا بالعدوان على بريء . وفي هذا الانصاف بين مؤلّهيه ومكفريه شفاعة من تلك الصرامة في العقاب .

وكان الامام يذكر أبداً في حكومته ان الحقوق العامة لها شأن لا يُنسى مع حقوق الأفراد ..

ومن ذلك ما نقله الطبري عن بعض الأسانيد ، حيث قال : « رأيت علياً عليه السلام خارجاً من همدان ، فرأي فتيين يقتتلان ففرق بينهما .. ثم مضى فسمع صوتاً : يا غوثا بالله . فخرج يحضر نحوه حتى سمعت خفق نعله، وهو يقول : « أتاك الغوث .. » فاذا رجل يلازم رجلاً ، فقال : « يا أمير المؤمنين .. بعتُ هذا ثوباً بتسعة دراهم وشرطت عليه ألا يعطيني مغموزاً ولا مقطوعاً ، فأتيته بهذه الدراهم ليبدلها لي فأبى فلزمته فلطمني » فقال : « ابدله » ثم قال : « بيّنتك على اللطمة » فأتاه بالبيّنة .. قال : « دونك فاقتص » قال : « اني قد عفوت يا أمير المؤمنين » قال : « انما أردت أن أحتاط في حقك » .. ثم ضرب الرجل تسع درات ، وقال : « هذا حق السلطان » .

وكان يكرر هذا الحكم في كل ما شابهه من أمثال هذا العدوان ، وهو اشبه المذاهب بمذهب الحكومات العصرية في القصاص .

ويقال الكثير عن مناهج الامام في الحكومة وسياسة الرعية مما يغني فيه هذا الاجمال عن التوسع في التفصيل .

ولكن الذي لا يُنسى في سياق الكلام عن الامامة والدعوة العالمية ، انه رضي الله عنه كان أول من خرج بالعاصمة من المدينة الى أرض غير أرض الحجاز ، وهو الحجازي سليل الحجازيين . .

وقد اختار الكوفة،فكانت أوفق عاصمة للإمامة العالمية في تلك المرحلة من مراحل الدولة الاسلامية . .

لأنها كانت ملتقى الشعوب من جميع الأجناس ، وكانت مثابة التجارة بين الهند وفارس واليمن والعراق والشام ، وكانت العاصمة الثقافية التي ترعرعت فيها مدارس الكتابة واللغة والقراءات والأنساب والأفانين الشعرية والروايات . . فهي أليق العواصم في ذلك العصر بحكومة إمام ، ومـا زالت الامامة لاحقة بعليّ ومحيطة به حيث تحول وحيث أقام . .



٨

النبي والإمام والصحابة

أحاديث النبي عليه السلام في فضل عليٌّ ومحبته متواترة في كتب الحديث المشهورة .. منها ما انفرد به ، وهو حديث الخيمة الذي رواه الصدّيق رضي الله عنه حيث قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم خيم خيمة ، وهو متكىء على قوس عربية، وفي الخيمة عليٌّ وفاطمة والحسن والحسين ، فقال : معشر المسلمين .. أنا سلم لمن سالم أهل الخيمة ، حرب لمن حاربهم ، وليٌّ لمن والاهم ، لايحبهم الا سعيد الجد طيب المولد، ولا يبغضهم الا شقي الجد رديء الولادة » .

ومنها ما اشترك فيه وغيره ، وهو الذي روته السيدة عائشة حيث سئلت : « أي الناس أحب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟.. قالت: فاطمة !.. فقيل : مَنْ زوجها !.. قالت : زوجها .. ان كان ما علمت صواماً قواماً »

وقد روي حديث في هذا المعنى ، حيث سُئل رسول الله عن أحب

الناس اليه ، فقال : « من النساء عائشة ، ومن الرجال أبوها » .

ولا تناقض بين الحديثين ، إذ كانت السيدة عائشة هي التي تروي الحديث الأول ، وتخرج من كلامها كما يخرج المتكلم من عموم كلامه ، أو كانت تروي عن أقرباء النبي من لحمه ودمه ، فتقول ما تعلم عن غيرها .

وهذان نموذجان من الأحاديث النبوية في فضل عليّ ومحبته ومنزلته عند الله ونبيّه ، وهي تعد بالعشرات .

وأصحاب المذاهب يختلفون في تأويل هذه الأحاديث ، وفي أسانيدها ، ويوجهونها حيث اتجهوا من التشيع للامام أو التشيع عليه . . وهو شرح طويل لا يهمنا منه هنا ان ننصر فيه فريقاً على فريق ، أو نرجّح مذهباً على مذهب .. اذ ليس فَهْمُ الامام موقوفاً على تغليب أي الفريقين وتعزيز أي المذهبين ، وفَهْم الامام على حقيقته النفسية والتاريخية هو كل ما نعنيه ..

فمهما يختلف الرواة في تأويل الأحاديث ، فالذي يسعك أن تجزم به من وراء اختلافهم ، ان عليّا كان من أحب الناس الى النبيّ ، ان لم يكن أحبهم اليه على الاطلاق ..

لقد كان النبي عليه السلام يغمر بالحب كل من أحاط به من الغرباء والأقربين .. فأي عجب أن يخص بالحب من بينهم انساناً ، كان ابن عمه

الذي كفله وحماه ، وكان ربيبه الذي أوشك أن يتبناه ، وكان زوج ابنته العزيزة عنده ، وكان بديله في الفراش ليلة الهجرة التي همّ المشركون فيها بقتل من يبيت في فراشه . وكان نصيره الذي أبلى أحسن البلاء في جميع غزواته ، وتلميذه الذي علم من فقه الدين ما لم يعلمه ناشىء في سنّه ؟ ..

حب النبي لهذا الانسان حقيقة لا حاجة بها الى تأويل الرواة ولا الى تفسير النصوص ، لأنها حقيقة طبيعية ، أو حقيقة بديهية قائمة من وراء كل خلاف ..

ومما لا خلاف فيه كذلك، انه عليه السلام كان لا يكتفي بحبه اياه .. بل كان يسره ويرضيه أن يحبّبه الى الناس ، وكان يسوؤه ويغضبه أن يسمع من يكرهه ويجفوه ..

بعث رسول الله علياً في سرية ليقبض الخمس ، فاصطفى منه سبية ، وأتفق أربعة من شهود السرية أن يبلغوا ذلك الى رسول الله . وكان المسلمون اذا قدموا من سفر بدءوا بالرسول ، فسلموا عليـــه وأبلغوه ما عندهم ، ثم انصرفوا الى رحالهم .. فقام أحد الأربعة وحدث الرسول بما رأى فأعرض عنه ، وظن الصحابة أنه لم يسمعه .. فتناوبوا الحديث واحداً بعد واحد في معنى كلامه . فلما فرغ الرابع من حديثه أقبل عليه رسول الله وقد تغير وجهه فقال: « ما تريدون من عليّ ؟.. ما تريدون من عليّ ؟ .. مـــا تريدون من عليّ ؟ .. عليّ مني وأنا منه وهو وليّ كل

مؤمن بعدي » وقال لأحدهم في روايات أخرى : « أتبغض عليّاً ؟ » قال : « نعم ! » قال : « لا تبغضه ، فان له في الخمس أكثر من ذلك ، أي أكثر من السبية التي اصطفاها .. لا تبغضه ، وان كنت تحبه فازدد له حباً » .

* * *

وبعث رسول الله عليّاً الى اليمن ، فسأله جماعة من أتباعه أن يركبهم إبل الصدقة ليريحوا إبلهم ، فأبى .. فشكوه إلى رسول الله بعد رجعتهم. وتولى شكايته سعد بن مالك بن الشهيد ، فقال: « يا رسول الله . . لقينا من عليٍّ من الغلظة وسوء الصحبة والتضييق . . » ومضى يعدد ما لقيه ، حتى اذا كان في وسط كلامه ضرب رسول الله على فخذه ، وهتف به : « يا سعد بن مالك بن الشهيد ، بعض قولك لأخيك عليٍّ ؟ فوالله لقد علمت انه جيش في سبيل الله »

وشكا بعض الناس مثل هذه الشكوى ، فقام رسول الله فيهم خطيباً يقول لهم: « أيها الناس . . لا تشكوا علياً ، فوالله انه لجيش في ذات الله » . .

ويلوح لنا ان النبي عليه السلام كان يحب علياً ويحببه الى الناس، ليمهد له سبيل الخلافة في وقت من الأوقات ، ولكن على أن يختاره الناس طواعية وحباً . . لا أن يكون اختياره من حقوق العصبية الهاشمية ، فإنه عليه السلام قد اتقى هذه العصبية جهد اتقائه ، ولم يحذر خطراً على

الدين أشد من حذره أن يحسبها النــــاس سبيلا الى المُلْك والدولة في بني هاشم ، وقد حرم نفسه الشريفة حظوظ الدنيا وأقصى معظم بني هاشم عن الولاية والعمالة لينفي هذه الظنة . . ويدع الحكم للناس يختارون من يرضونه له بالرأي والمشيئة . .

فالتزم في التمهيد لعليّ وسائل ملموحة لا تتعدى التدريب والكفالة الي التقـديم والوكالة ، أرسله في سرية الى فدك لغزو قبيلة بني ســـعد اليهوديـة ، وأرسله الى اليمن للدعوة الى الاسلام ، وأرسله الى منى ليقرأ على الناس سورة براءة ، ويبين لهم حكم الدين في حـــج المشركين وزيارة بيت الله ، وأقامه على المدينة حين خرج المسلمون الى غزوة تبوك .. ولم يفته مع هـذا كله أن يلمح الجفوة بينـه وبين الناس ، وأن يكله الى السن تعمل عملها مع الأيام ، ويكلهم في شانه الى ما ارتضوه ، عسى أن تسنح الفرصة لمزيد من الألفة بينهم وبينه . .

هذه فيما نعتقد أصح علاقة يتخيلها العقل ، وتُنبىء عنها الحوادث بين النبي وابن عمه العظيم ..

***

وربما كانت أصح العلاقات المعقولة لأنها هي وحدهـــا العلاقة الممكنة المأمونة ، وكل ما عداها فهو بعيد من الامكان بعده من الأمان .

فهو يحبه ويمهّد له وينظر الى غده ، ويسره أن يحبه الناس كما أحبه ، وأن يحين الحين الذي يكلون فيه أمورهم إليه ..

وكل ما عدا ذلك ، فليس بالممكن وليس بالمعقول ..

ليس بالممكن أن يكره له التقديم والكرامة ..

وليس بالممكن أن يحبهما له، وينسى في سبيل هـذا الحب حكمته الصالحة للدين والخلافة ..

واذا كان قد رأى الحكمة في استخلافه ، فليس بالممكن أن يرى ذلك ثم لا يجهر به في مرض الوفاة أو بعد حجة الوداع ..

واذا كان قد جهر به ، فليس بالممكن أن يتالب أصحـابه على كتمان وصيته وعصيان أمره . انهم لا يريدون ذلك مخلصين ، وانهم إن أرادوه لا يستطيعونه بين جماعة المسلمين ، وانهم ان استطاعوه لا يخفى شانـه ببرهان مبين ، ولو بعد حين ..

فكل أولئك ليس بالممكن ، وليس بالمعقول ..

وانما الممكن والمعقول هو الذي كان ، وهو الحب والايثار ،والتمهيد لأوانه ، حتى يقبله المسلمون ويتهيأ له الزمان .

أما العلاقة بين عليٍّ وسائر الصحابة من الخلفاء وغير الخلفاء ، فهي علاقـة الزمالة المرعيـة والتنافس الذي يثوب الى الصبر والتجمل والتقية ..

فليس فيما لدينا من الأخبار والملامح ما يدل على ألفـة حميمة بينه وبين أحد من الصحابة المشهورين ، وليس فيها كذلك ما يدل على عداوة وبغضاء .. بل ليس في أخباره جميعاً ما يدل على طبيعة تحقد على الناس ،

وان دلت أحياناً على طبيعة يحقد الناس عليها ويفرطون .

فمن المعلوم ان علياً كان يرى انه أحق بالخلافة من سابقيه ، وأنه لم يزل مدفوعاً عن حقه هـــذا منذ انتقل النبي عليه السلام الى الرفيق الأعلى . واحتج المهاجرون على الأنصار في أمر الخلافـــة بالقرابة منه صلوات الله عليه . قال : « ولما احتج المهاجرون على الأنصار يوم السقيفة برسول الله صلى الله عليه وسلم فلجوا [1] عليهم .. فان يكن الفلج به فالحق لنا دونكم ، وان بغيره فالأنصار على دعواهم »

كذلك كان رأيه في الخلافـــة يوم بويـع بها الصدّيق ، ثم بويع بها الفاروق ، ثم بو يـع بها عثمان ..

وجاءت قضية الارث بعد قضية الخلافة في أوائل عهد الصدّيق ، فباعدت الفرجة بين القلوب، وأطالت العزلة بين الأصحاب . . وخلاصة هذه القضية ، ان فاطمة والعباس رضي الله عنهما طلبا ميراثهما في أرض فدك وسهم خيبر ، فذكر لهما الصدّيق حديث النبي عن أرث الأنبيـاء ، ونصه في روايته : « نحن معاشر الأنبياء ،لانورث . . ما تركناه فهو صدقة . . انما يأكل آل محمد من هذا المال »

فغضبت فاطمة ، ولم تكلمه حتى ماتت . . ودفنها عليّ ليلا ، ولم يؤذن بها أبا بكر . . وقيل ان علياً تخلف عن البيعة ستة أشهر الى ما بعد وفاتها. ثم أرسل الى أبي بكر أن ائتنا ولا يأتنا معك أحد . . وتلقاه وعنده

---

(١) فلجوا : أي انتصروا عليهم .

بنو هاشم ، فقال : « انه لم يمنعنا من أن نبايعك يا أبا بكر إنكار لفضيلتك، ولا نفاسة عليك بخير ساقه الله إليك ، ولكنا كنا نرى أن لنا في هذا الأمر حقاً فاستبددتم به علينا » .

ومع هذا اليقين الراسخ عنده في حقه وحق غيره ، نرجع الى سيرته وأحاديثه .. فنرى ولا ريب انها أقل ما تشعر به النفس الانسانية في هذه الحالة من النفرة والنقمة ، ولا نجد في خطبه ومساجلاته التي ذكر فيها الخلفاء السابقين كلمة تستغرب من مثله ، أو يجاوز بها حد الحجّة التي تنهض بحقه .. بل الغريب انه لزم هذا الحد ولم يجاوزه الى جمحة غضب تفلت معها بوادر اللسان ، ولو جاوزه لكان عاذروه أصدق من لائميه .. !

***

وقد أعان أسلافه الثلاثة برأيه وعمله ، وجاملهم مجاملة الكريم بمسلكه ومقاله . ولم يبدر منه قط ما ينم على كراهية وضغن مكتوم .. ولكنه كان يأنف أن ينكر هذه الكراهية اذا رمي بها كما يأنف العزيز الكريم . وفي ذلك يقول من خطاب الى معاوية : « ذكرت ابطائي عن الخلفاء وحسدي اياهم والبغي عليهم ، فأما البغي فمعاذ الله أن يكون ، وأما الكراهية لهم فوالله ما أعتذر للناس من ذلك »

وأولى أن يقال ان دلائل وفائه في حياتهم، وبعد ذهابهم، كانت أظهر من دلائل جفائه .فانه احتضن ابن أبي بكر محمداً و كفله بالرعاية ورشّحه

للولاية ، حتى حُسِب عليه وانطلقت الألسنة بانتقاده من أجله ، وقد سمي ثلاثة من أبنائه بأسماء الخلفاء الذين سبقوه ، وهم : أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ..

ويخطىء جداً من يتخذ فتواه في مقتل الهرمزان دليلا على كراهيته لعمر أو نقمة منه في أبنائه .. فقد أسرع عبيد الله بن عمر الى الهرمزان ، فقتله انتقاماً لأبيه ، ولم ينتظر حكم ولي الأمر فيه ولا أن تقوم البينة القاطعة عليه . فلما استفتي في هذه القضية أفتى بالقصاص منه ، ولم يغير رأيه حين تغير رأي عثمان ، فأعفاه من جريرة عمله . . لأنه هو الرأي الذي استمده من حكم الشريعة كما اعتقده وتحرّاه ، وبهذا الرأي دان قاتله عبدالرحمن بن ملجم ، فاوصى وكرر الوصاية ألا يقتلوا أحداً غيره لمظنة المشاركة بينه وبين رفقائه في التآمر عليه .

وانك لن تجد انساناً أعرف بالعهد ، ولا أصون له ممن يتذاكره في حومة الحرب ، ويرى ان التذكير به ينزع السلاح من الأيدي ، ويعود بالخصمين المتناجزين الى الصفاء والأخاء ..

فما حارب عليٌّ عدواً له سابقة مودة به إلا أن يذكره بتلك السابقة ، ويستنجد بالصداقة الأولى فيه على العداوة الحاضرة ..

ومن ذلك موقفه مع الزبير وطلحة في وقعة الجمل ، وهما ملحان في حربه وانكار بيعته ..

فخرج حاسراً لا يحتمي بدرع ولا سلاح ، ونادى :

يا زبير ، اخرج اليّ .. فخرج إليه شاكا في السلاح ، وسمعت السيدة عائشة فصاحت : وا حرباه ! .. اذ كان خصم عليّ مقضياً عليه بالموت كائناً ما كان حظه من الشجاعة والخبرة بالنضال .

فلما تقابل عليّ والزبير اعتنقا ، وعاد عليّ يسأل : « ويحك يا زبير ما الذي أخرجك ؟ .. »

قال : « دم عثمان »

قال : « قتل الله أولادنا بدم عثمان »

وجعل يذكر عهوده وعهود رسول الله ، ومنها مقالة النبي : « والله ستقاتله وأنت له ظالم »

فاستغفر الزبير وقال : « لو ذكرتها ما خرجت »

***

ولما وقف عليّ على جثة طلحة بكى أحر بكاء ، وجعل يمسح التراب عن وجهه وهو يقول : « عزيز عليّ أن أراك أبا محمد مجندلاً تحت نجوم السماء » وتمنى لو قبضه الله قبل هذا اليوم بعشرين سنة . .

والمودّة عند فارس كعلي عهد محفوظ وموثق مذكور ، إن فاتها أن تكون حنان قلب أو ألفة شعور .

ويخيل الينا انه لم يرزق قط صداقة الألفاء الذين يرعاهم ويرعونه لأنه يحبهم ويحبونه ، ولكنه عامل الناس وعاملوه على سنّة العهود وديدن الفروسية ، فلم تزل بينه وبينهم ايماءة الى سلاح مغمد أو سلاح

مشهور .

ومثل عليٍّ لا يرزق صداقة الالفاء ، لأنه من أصحاب المزايا التي تغري بالمنافسة أو بالحسد ولا تحميها المنافع ولا المسايرة والمداراة .

فهو شجاع ، عالم ، بليغ ، ذكي ، موصول النسب بأعرق الارومات .. فان لم يحسد هذا ، فمن يحسد؟ ..

وان حُسِد ، فما الذي يفلّ من غرب حاسديه ؟ .. وما الذي يفيء بهم الى القصد في عداته والتأليب عليه ؟ ..

انهم يستبعدون يومه في الامارة والسلطان ، واذا استقربوا يومه في الامارة والسلطان فلا مطمع لهم في النفع على يديه وهو قوّام بالقسط على الأموال والحقوق ، فنصيبه اذن منهم نصيب المحسود الذي لا رجاء له في هوادة من حاسديه ، وليس أحقد من الناس على صاحب عظمة لم يطمعوا في نفعه ولم يزالوا على طمع في النفع من خصومه ، وبليّته بهم أكبر وأدهى حين لا يصطنع الدهان ولا يعمد معهم الى الختل والروغان .. وعلى انه لو داهنهم وراوغهم لما اغتفروا له ذنب العظمة التي لا تحميها حماية من طمع أو نكاية ، أو كما قال الحكيم الغربي : « ان نسي انه أسد لم ينسوا انهم كلاب » .

* * *

وهكذا فُرضت على الرجل العظيم ضريبة العظمة الغريبة في ديارها وبين آلها وأنصارها ..

فالعلاقة بينه وبين كرام الصحابة، كانت علاقة الزمالة التي ينوب فيها الواجب مناب الالفة . .

والعلاقة بينه وبين الخصوم ، كانت علاقـــة حسد غير مكفوف، وبغض غير مكتوم . .

والعلاقة بينه وبين سواد العامة ، كانت علاقة غرباء يجهلونـه ولا ينفذون الى لبابه ، وان قاربه اناس معجبين ، وباعده أناس نافرين . .

وتلك أيضاً آية الشهيد . .



٩

ثقافة

ألسنة الخلق أقلام الحق ..

كلمة سائغة ليس أصدق منها ان صدقت ، وهي صدق في كثير من الأحيان ..

ونحن نعلم صدقها الأصيل حين نسمع الكلمة من هذه الكلمات التي ينقلها لسان عن لسان ويتلقاها جيل عن جيل ، فيخيل الينا انها خاطر عابر يسمع ويستملح ويشفع له القدم .. فنقبله كرامة له كما نقبل الثمين والغث أحياناً من وقار المشيب ، ولكنه بعد كل هذا لا يثبت على النقد ولا يصبر على مراجعة العلم والقياس،ثم نعرضه اتفاقاً على العلم والقياس .. فاذا به قد احتمل من النقد العسير ما ليست تحتمله آراء العلماء وقضايا الحكماء ، واذا بالخطأ في هذه القولة الشائعة أو في هذا اللقب المرتجل أقل من كل خطأ يحصى على كلام مخلوق ..

من هذه الألقاب الشائعة ، لقب الامام الذي اختُصّ به عليٌّ بين جميع الخلفاء الراشدين ، والذي يطلق اذا أطلق فلا ينصرف الى

أحد غيره ، بين جميـع الأئمة الذين وُسموا بهذه السمة من سابقيه ولاحقيه ..

ولِمَ وليس هو بفرد في الإمامة بجملة معانيها ؟ ..

ألم يكن الصدّيق اماماً كعليٍّ ؟ .. ألم يكونوا خلفاء راشدين اذا قصدت الخلافة الراشدة بعد النبوة ؟ ..

بلى كانوا أئمة مثله ، وسبقوه في الإمامة ..

ولكن الإمامة يومئذ كانت وحدها في ميدان الحكم بغير منازع ولا شريك، ولم يكتب لأحد منهم أن يحمل علم الإمامة ليناضل به علم الدولة الدنيوية ، ولا أن يتحيز بعسكر يقابله عسكر ، وصفة تناوئها صفة ، ولا أن يصبح رمزاً للخلافة يقترن بها ولا يقترن بشيء غيرها .. فكلهم إمام حيث لا اشتباه ولا التبـاس ، ولكن الامام بغـير تعقيب ولا تذييل هو الامام كلما وقع الاشتباه والالتباس ..

وذاك هو عليٌّ بن أبي طالب ، كما لقبـه الناس وجرى لقبه على الألسنة .. فعرفه به الطفل وهو يسمع أماديحه المنغومة في الطرقات ، بغير حاجة الى تسمية أو تعريف ..

***

وخاصة أخرى من خواص الإمامة ، ينفرد بها عليٌّ ولا يجاريه فيها امام غيره ، وهي اتصاله بكل مذهب من مذاهب الفرق الاسلامية منذ وجدت في صدر الاسلام ، فهو منشيء هذه الفرق أو قطبها الذي تدور عليه . وندرت فرقة في الإسلام لم يكن عليٌّ معلماً لهـا منذ نشأتها ، أو

لم يكن موضوعاً لها ومحوراً لمباحثها ، تقول فيه وترد على قائلين .

وقد اتصلت الحلقات بينه وبين علماء الكلام والتوحيد ، كما اتصلت الحلقات بينه وبين علماء الفقه والشريعة ، وعلماء الأدب والبلاغة ..فهو أستاذ هؤلاء جميعاً بالسند الموصول..

أما الفرق التي جعلته موضوعاً لها ومحوراً لمباحثها ، فحسبك أن تذكر الخوارج والروافض والشيعة والناصبين وأهل السنّة ، فتكون قد ذكرت جميع الفرق الاسلامية بلا استثناء أو باستثناء جد يسير .

وهنا تشتبك الفروع وتتأشب الأفانين ، فترى الفرقة الواحدة مزيجاً من التصوف والسياسة ، كالباطنية على اختلافها .. وقد تترامى بها الفروع حتى تصل الى القائلين بمذهب الباب أو مذهب البهاء ، وهم طرف مقطوع أو موصول ، من تلك الأصول . .

فالامام أحق لقب به ، وهو أحق الأئمة بلقب الامام ! ..

ولقد كانت له آية من آيات الشهداء في كثير من صفاته ، وكثير من معارض حياته ، وطوارىء أوقاته .

وكانت له في الإمامة آية أخرى من هذه الآيات ..

فآية الشهداء انهم يبخسون حقهم في الحياة، ثم يعطون فوق حقوقهم بعد الممات ..

أو هم يعرضون لنا عجائب الدنيا في اقبالها وادبارها ، كما قال الامام رضي‌الله عنه: « انها إذا أدبرت عن انسان سلبته محاسن نفسه ،وإذا أقبلت

عليه أعارته محاسن غيره »

وكذلك اتفق للإمام في صفة الإمامـــة ، كما اتفق له في معظم الصفات ..

فقلّ ان سمعنا بعلم من العلوم الاسلامية أو العلوم القديمة لم ينسب إليه ، وقلّ أن تحدث النـاس بفضل لم ينحلوه اياه ، وقلّ ان توجـه الثناء بالعلم الى أحد من الأوائل إلا كانت له مساهمة فيه ..

نَحلُوه ديواناً من الشعر فيه عشرات من القصائد ، وليس بينها إلا عشرات من الأبيات تصح نسبتها إليه ..

ونَحلُوه علماً سموه علم « الجفر » وزعموا انه علم النجوم والازياج الذي يكشف عن حوادث الغيب الى آخر الزمان .

ونَحلُوه مقـامات تخلو من أشيع الحروف في الكلمات وهو حرف الألف ، ولا يعقل أن تظهر أشباه هذه المقامات قبل عصر الصناعة في أيام العباسيين وما تلاها . .

ونحلوه من مصطلحات علم الكلام أقوالاً لم تعرف ، ولا يعقل أن تعرف قبل ترجمة المفردات الاغريقية بما لها من غرائب النحت والاشتقاق .

وبعض ما نحلوه يزيده قدراً ويرفعه شاناً ، ألا تصح نسبته اليه .. ؟

وبعض ما بقي له غير مشكوك فيه ولا مختلف عليه . . كافٍ لتعظيم قدره واثبات امامته في عصره ، وبعد عصره .

وعندنا انه رضي الله عنه كان ينظم الشعر ويحسن النظر فيه ، وكان

نقده للشعراء نقد عليم بصير ، يعرف اختلاف مذاهب القول واختلاف وجوه المقابلة والتفضيل على حسب المذاهب ، ومن بصره بوجوه المقابلة بينهم انه سئل : « من أشعر النـــاس ؟ » قال : « ان القوم لم يجروا في حلقة تعرف المقابلة إلا بين أشباه وأمثال ولا يكون التعمـــيم بالتفضيل إلا على التغليب» ..

وهـذا فيما نعتقـد أول تقسيم لمقاييس الشعر على حسب « المدارس » والأغراض الشعرية بين العرب . فلا تكون المقابلة إلا بين أشباه وأمثال ولا يكون التعميم بالتفضيل إلا على التغليب .

لكنه رضي الله عنه لم يرزق ملكة الاجادة في شعره ، والنبيّ عليه السلام يرى ذلك حيث سالوه أن ياذن لعليٍّ في هجـاء المشركين فقال : « ليس بذاك » .. وأحالهم الى حسان بن ثابت ، وندب له من يبصره بمثالب القوم ..

وكل شعره الذي رجحت نسبته إليه من قبيل هذه الأبيات التي وصف بها قبيلة همدان في وقعة صفين :

ولمـــا رأيتُ الخيلَ ترَجم بالقَنا فوارُسهـــا حمرُ النحُور دوام
وأعرض نقـــع في السّماء كأنه عجاجـة دجن مُلبس بقتـــام
ونادى ابن هنـد في الكلاع وحِمْيَر وكِندَة في لخم وحي جـــذام
تيممت همـــدان الذين هم هم اذا ناب دهر جنتي وسهـــامي
فجاوبني من خيل همـدان عصبة فوارس من همـدان غير لئـــام

فخاضوا لظاها واستطاروا شرارها — وكانوا لدى الهيجا كشرب مدام
فلو كنت رضواناً على باب جنـــة — لقلت لهمدان : ادخـــلوا بسلام

أو من قبيل هذه الأبيات :

محمـــد النبي أخي وصهري — وحمزة سيد الشـــهداء عمي
وجعفر الذي يمسي ويضحي — يطير مـع الملائكة ابن أمي
وبنت محمد سكني وعرسي — منوط لحمهـــا بدمي ولحمي
وسبطا أحمـــد ولداي منها — فأيـكم له ســـهم كسهمي
سبقتـكم الى الاسلام طرا — صغيراً ما بلغت أوان حلمي
وصليت الصلاة وكنت فرداً — فمن ذا يدعى يوماً كيومي

وقد نظم شعراً ولا ريب ، كما يدل سؤالهم النبيّ عليه السلام أن يأذن له في هجاء من هجاهم ، ولم ينسب إليـه شعر .. صح أو لم يصح ، أجود مما قدمناه . وليس فيه مـــا يسلكه بين المجودين من الشعراء ، أو يلحق بطبقته بين الكتاب والخطباء ..

أما كتاب الجفر أو علم الجفر ، فالقول الفصل فيه أقرب من القول الفصل في جميع ما نحاوه وأضافوا إليه .. فمثل عليٍّ في تقواه وفضله، لا يشتغل بعلم مزعوم هو السحر القديم بعينه ، وليس هو ممـــا يليق بورعه ولا ذكائه . وقـــد نهى وشدّد النهي عن تعلم النجوم واستطلاع الغيب بأمثال هـذه العلوم ، ومن المحقق الذي لا خلجة فيه من الشك عندنا أن النبوءات التي جاءت في نهج البلاغـــة عن الحجاج بن يوسف

وفتنة الزنج وغارات التتار وما إليها ، هي من مدخول الكلام عليه .. ومما أضافـــه النساخ الى الكتاب بعد وقوع تلك الحوادث بزمن قصير أو طويل ..

ولا نجزم مثل هـــذا الجزم في أمر المقامات التي خلت من بعض الحروف ، لأن العقل لا يمنعها قطعاً كما يمنع استطلاع الغيب المفصل من ازياج النجوم ، ولكننا نستبعد جداً أن تكون هـــذه المقامات من كلام الامام لاختلاف الأسلوب واختلاف الزمن ، وحاجة النسبة هنا الى سند أقوى من السند الميسر لنا بكثير .

***

وكذلك نستبعد انه قال لكاتبه ليظهر علمه بغريب اللغة : « ألصق روانفك بالجبوب وخذ المزبر بشناترك واجل حندورتيك الى قيهلي حتى لا أنفي نفية الا أودعتها بحماطة حلجلانك » .

أي « الصق مقعدك بالأرض وخذ القلم بين أصابعك واجعل عينيك الى وجهي حتى لا ألفظ بلفظة الا وعيتها في سواد قلبك » .

فان الولع باظهار العلم بالغريب بدعـة لم تعرف في صدر الاسلام ، ولم يلتفت الناس الى ادعائها إلا بعد استعجام العرب وندرة العارفين .

ومثل هذا ، ما نسبوه اليه حيث زعموا انه قال « ما تربعلبنت قط » أي ما أكلت السمك يوم السبت .. « وما تسرولقمت قط » أي ما لبست السراويل قائماً .. الى أشباه هذه المخترعات التي تستغرب لفظاً ومعنى

واعتقاداً من رجل كالإمام في صدر الاسلام .

إلا اننا نسقطها جميعاً ، فلا نسقط بها فضلاً ترجح به موازين الامام في حساب الثقافة ..

بل نحسبها فضلاً ـ ان شئنا ـ ونسقطها فيبقى له بعدها السهم الراجح في تلك الموازين ..

تبقى له الهداية الأولى في التوحيد الاسلامي ، والقضاء الاسلامي ، والفقه الاسلامي ، وعلم النحو العربي، وفن الكتابة العربية .. مما يجوز لنا أن نسميه أساساً صالحاً لموسوعة المعارف الاسلامية في جميع العصور ، أو يجوز لنا أن نسميه موسوعة المعارف الاسلامية كلها في الصدر الأول من الاسلام ..

وتبقى له مع هذا فرائد الحكمة التي تسجل له في ثقافة الأمة الاسلامية ، على تباين العصور ..

ففي كتاب نهج البلاغة ، فيض من آيات التوحيد والحكمة الإلهية تتسع به دراسة كل مشتغل بالعقائد وأصول التاليه وحكمة التوحيد

وربما تشكك الباحث في نسبة بعضها الى الامام لغلبة الصيغة الفلسفية عليها وامتزاجها بالآراء والمصطلحات التي اقتبست بعد ذلك من ترجمة الكتب الاغريقية والأعجمية ، ولاسيا الكلام على الأضداد والطبائع والعدم والحدود والصفات والمواصوفات ، ولكن الذي يقرؤه الباحث

ولا يشك في نسبته الى الامــام أو في جواز نسبته اليه،قسط وافٍ لتحميق رأي القائلين بسبق الامام في مضمار عــلم الكلام ، واعتراف المعترفين له بالأستاذية الرشيدة لكل من لحــق به من أصحاب الآراء والمقولات . وهو على جملته خير ما يعرف به المؤمن ربه وينزه به الخالق في كماله ، ومن أمثلته قوله : « الحمــد لله الذي لم يسبق له حال حالاً ، فيكون أولاً قبل أن يكون آخراً ،ويكون ظاهراً قبل أن يكون باطناً ، كل مسمى بالوحدة غيره قليل ، وكل عزيز غيره ذليل ، وكل قوي غيره ضعيف ، وكل مالك غيره مملوك ، وكل عالم غيره متعلم ، وكل قادر غيره يقدر ويعجز ، وكل سميع غــيره يصمّ عن لطيف الأصوات ، ويصمه كبيرها،ه يذهب عنه ما بعد عنها، وكل بصير غيره يعمى عن خفي الألوان ولطيف الأجسام، وكل ظاهر غيره باطن ، وكل باطن غيره ظاهر ،لم يخلق من خلقه لتشديد سلطان ولا تخوف من عواقب زمان، ولا استعانة على من شاور ، ولا شريك مكاثر ، ولا ضد منافر ، ولكن خلائــق مربوبون وعباد داخرون ــ أي ضارعون ــ لم يحلل في الأشياء فيقال هو فيها كائن ، ولم ينأ عنها فيقـال هو منها بائن ، لم يؤده خلق ما ابتدأ ولا تدبير ما ذرأ ، ولا وقف به عجز عما خلق ، ولا ولجت عليه شبهة فيما مضى وقدر ، بل قضاء متقن ، وعلم محكوم وأمر مبرم . »

أما القضاء والفقه ، فالمشهور عنه انه كان أقضى أهل زمانه وأعلمهم بالفقه والشريعة .. أو لم يكن بينهم من هو أقضى منه وأفقه وأقـدر على

إخراج الأحكام من القرآن والحديث والعرف المأثور . وكان عمر بن الخطاب يقول كلما استعظم مسالة من مسائل القضاء العويصة : قضية ولا أبا حسن لها : لأنه كان في هذه المسائل يتجاوز التفسير الى التشريع ، كلما وجب الاجتهاد بالرأي الصائب والقياس الصحيح ..

وفي أخباره ، ما يدل على عِلْمِه بادوات الفقه كعلمه بنصوصه وأحكامه .. ومن هذه الأدوات علم الحساب الذي كانت معرفته به أكثر من معرفة فقيه يتصرف في معضلات المواريث، لأنه كان سريع الفطنة الى حيله التي كانت تعد في ذلك الزمن ألغازاً تكد في حلها العقول ،فيقال ان امرأة جاءت اليه وشكت اليه أن أخاها مات عن ستمائة دينار ، ولم يقسم لها من ميراثه غير دينار واحد .. فقال لها : لعله ترك زوجة وابنتين وأما وإثنى عشر أخاً وأنت ؟ فكان كما قال.

وسئل يوماً في أثناء الخطبة عن ميت ترك زوجة وأبوين وابنتين . فأجاب من فوره: صار ثمنها تسعاً . وسميت هذه الفريضة بالفريضة المنبرية ، لأنه أفتى بها وهو على منبر الكوفة ..

وفي هذه الاجابات ، دليل على الذكاء وسرعة البديهة .. فضلاً عن الدلالة الظاهرة على العلم بالمواريث والحساب .

واذا قيل في قضائه انه لم يكن أقضى منه بين أهل زمانة ، صح أن يقال في علم النحو انه لم يكن أحد أوفر سهماً في انشاء هذا العلم من سهمه . وقد تواتر أن أبا الأسود الدؤلي شكا إليه شيوع اللحن على

ألسنة العرب ، فقال له : اكتب ما أملي عليك، ثم أملاه أصولاً منها : ان كلام العرب يتركب من اسم وفعل وحرف، فالاسم ما أنبأ عن المسمى، والفعل ما أنبأ عن حركة المسمى ، والحرف ما أنبأ عن معنى ليس باسم ولا فعل..وان الأشياء ثلاثة : ظاهر ، ومُضمر، وشيء ليس بظاهر ولا مضمر .. وانما تتفاوت العلماء في معرفة ما ليس بظاهر ولا مُضمر .. يعني اسم الاشارة على قول بعض النحاة ،ثم قال لأبي الأسود : انح هذا النحو يا أبا الأسود .. فَعُرِفَ العلم باسم النحو من يومها .

وهذه رواية تخالفها روايات شتى تستند الى المقاربة بين اللغات الأخرى في اشتقاق أصولها النحوية ، ولاسيا السريانية واليونانية .. ولكن الروايات العربية لا تنتهي بنا الى مصدر أرجح من هذا المصدر ، وغيرها من الروايات الأجنبية والفروض العلمية لا يمنع عقلا ان يكون الامام أول من استنبط الأصول الأولى لعلم النحو العربي من مذاكرة العلماء بهذه الأصول بين أبناء الأمم التي تغشى الكوفة ، حواضر العراق والشام ، وهم هنالك غير قليل ، ولاسيا السريان الذين سبقوا الى تدوين نحوهم ، وفيه مشابهة كبيرة لنحو اللغة العربية .

وليس الامام عليّ أول من كتب الرسائل ، وألقى العظات ، وأطال الخطب على المنابر في الأمة الاسلامية ..

ولكنه ولا ريب أول من عالج هذه الفنون معالجة أديب ، وأول من أضفى عليها صبغة الانشاء الذى يقتدى به في الأساليب .. لأن الذين

سبقوه كانوا يصوغون كلامهم صياغة مبلغــين لا صياغة منشئين ، ويقصدون إلى أداء ما أرادوه ولا يقصدون إلى فن الأداء وصناعة التعبير ، ولكن الامام عليّا تعلم الكتابة صغيراً ودرس الكلام البليـغ من روايات الألسن وتدوين الأوراق،وانتظر بالبلاغة حتى خرجت من طور البداهة الأولى الى طور التفنن والتجويد .. فاستقام له أسلوب مطبوع مصنوع ، هو فيا نرى أول أساليب الانشاء الفني في اللغة العربية ، وأول أسلوب ظهرت فيه آثار دراسة القرآن والاستفادة من قدوته وسياقه، وتأتّـى له بسليقته الأدبية أن يأخذ من فحولة البداوة ومن تهذيب الحضارة ، ومن أنماط التفكير الجديد الذي أبدعته المعرفة الدينية والثقافة والاسلامية .. فديوانه الذي سمي « نهج البلاغـة » أحق ديوان بهذه التسمية بين كتب العربية ، واشتماله على جزء مشكوك فيه لا يمنــع اشتماله على جزء صحيح الدلالة على أسلوبه ، وربمـــا كانت دلالة الأخلاق والمزاج فيه أقوى وأقرب الى الاقناع من دلالة الأسانيد التاريخية،لأن طابع«الشخصية العَلَوية » فيه ظاهر من وراء السطور ومن ثنـايا الحروف ، يوحي اليك حيثما وعيته أنك تسمع الامام ولا تسمع أحداً غير الامام ، ويعز عليك أن تلمح فيه غرابة بين صاحب التاريخ وصاحب الكلام ..

على اننا نبالغ ما نبالغ في تمحيص المنحول وغـير المنحول من أقوال الامام ومن فنون ثقافته العامة ، ثم تبقى لنا بقية تسمح لنا ـ بل توجب علينا ـ أن نسأل : كيف يتسنى العلم بهذا لأي كان من النـــاس في مثل ذلك الزمان ؟ . .

والسؤال لا بد منه ، ولا نظن قارئاً من قراء تاريخ الامام لم يخطر هذا السؤال بباله ولم يرد على لسانه .

ولكن لا بد معه من تصحيح الباعث عليه لتصحيح الجواب عنه بعد ذلك ..

فالباعث عليه أننا نبالغ في تجريد البداوة العربية من الصلات المعقولة بالثقافة العالمية ، سواء كانت من ثقافة العلم والدرس أو ثقافة التواتر والتلقين ..

لكن البداوة العربية لم تكن في الواقع معزولة عن ثقافة الأمم المحيطة بها تلك العزلة التي تخطر لنا للوهلة الأولى ، فقد كانت على اتصال بعقائد الهند وفارس والروم ، وكانت للمعارف الانسانية أشعتها التي تتخلل الجزيرة العربية من قديم العصور .

وحسبنا من أمثلة ذلك، مثال واحد في معسكر الامام نفسه يغني عن الأمثلة من سبيله ..

وذلك هو مثال عبدالله بن سبأ المشهور بابن السوداء ، وهو يهودي ابن زنجية مولود في بلاد اليمن ، ومذهبه الذي اشتهر به هو مذهب الرجعة الذي يجمع فيه بين قول اليهود بظهور المنقذ من أبناء داود ، وقول أهل الهند بظهور الإله الذي يتقمص جسم انسان ، وقول النصارى بظهور المسيح ، وقول أهل فارس بتقديس الأوصياء من اقرباء الملوك والأمراء ..

فهذه عقيدة لا تظهر من رجل يمني من أهل الجزيرة ، اذا تخيلنا أن الجزيرة في حضارتها أو بداوتها بمعزل عن ثقافات الهند والفرس والروم وبني اسرائيل ، وان الأمـــة العربية تخلو من اناس سمعوا بالعقائد والفلسفات من طريق القدوة الدينية ، او طريق المحاكاة الاجتماعية ، او طريق الدراسة والسماع . .

وقد كانت عاصمة الامام في الكوفة.. وكانت مثابة الغادين والرائحين من أبناء الحضارات المعروفة في العالم باسره ، ومن المسلمين الذين عاشوا بها أو بجوارها أناسٌ كانوا ينظرون في كتب الفرس ويعجبون بحكمتها كما جاء في سيرة عمر بن الخطاب ، ومنهم من كان ينظر في النجوم على طريقة الفرس والروم ، وحذر بعض هؤلاء الامام أن يسير الى حرب الخوارج في طالع كواكب من الكواكب المنحوسة ، فقال له : « أتزعم أنك تهدي الى الساعة التي مَنْ سار فيها صُرف عنه السوء ؟. فمن صدق بهذا فقد كذب القرآن ، واستغنى عن الاستعانة بالله في نيل المحبوب ودفع المكروه » . .

* * *

ثم أقبل على الناس بالنصح والموعظة ، قائلاً : « اياكم وتعلم النجوم ، الا ما يهتدى بـه في بر أو بحر .. فانها تدعو الى الكهانـــة ، والمنجِّم كالكاهن ، والكاهن كالساحر ، والساحر كالكافر ، والكافر في النار ! »

وقد لبث عليّ بن أبي طالب زهاء ثلاثين سنة منقطعاً أو يكاد ينقطع

عن جهاد الحكم والسياسة، متفرغاً أو يكاد يتفرغ لفنون البحث والدراسة.. يتأمل كل ما سمع، ويراجع كل ما قرأ، ويعرف كل ما يعرف، ممن يلقاه، ويستطلع أنباءه وآراءه وقضاياه.. فمهما يكن قسط الثقافة العالمية قليلاً في بلاد الاسلام على تلك الأيام.. ففيه ولا ريب الكفاية للعقل اليقظان والبصيرة الواعية أن تفهم ما قد فهمه الامام، وأن يثبت ما أثبته نهج البلاغة من الخواطر والأحكام..

على أن هذه الفنون من الثقافة – أو جلتها – انما تعظم بالقياس الى عصرها والجهود التي بذلت في بدايتها.

فحصّة الإمام من علم النحو – مثلا – عظيمة لأن الابتداء بها أصعب من تحصيل المجلدات الضخام التي دوّنها النحاة بعد تقدم العلم وتكاثر الناظرين فيه..

وهكذا يقال في الحساب والمسائل العلمية التي من قبيله، فلا يجوز لنا أن نقيسها بمقياس العصر الحاضر.. وهي في ابتدائها أصعب جداً منها في أطوارها التي لحقت بها بعد نمائها واستفاضة البحث فيها..

* **

أما فن الثقافة الذي يقاس بمقياس كل زمن، فاذا هو عظيم في جميع هذه المقاييس، قليل الفوارق بين البدايات منه والنهايات، فذلك هو فن الكلم الجامعة أو فرائد الحكمة التي قلنا آنفاً انها تسجل له في ثقافة الأمم عامة كما تسجل له في ثقافة الأمة الاسلامية، على تباين العصور.

فالكلم الجوامع التى رويت للامام طراز لا يفوقه طراز في حكمة السلوك على أسلوب الأمثال السائرة.

وقد قال النبي عليه السلام : « علماء أمتي كأنبياء بني اسرائيل » ..

فهذا الحديث الشريف أصدق ما يكون على الامام علي في حكمته التي تقارن بحكم أولئك الأنبياء ..

فهي من طراز الحكم المأثورة عن أشهر أولئك الأنبياء بالمثل السائر وهو سليمان بن داود .

ويزيد عليها أنها أبدع في التعبير ، وأوفر نصيباً من ذوق الجمال ، كقوله مثلاً : « نفس المرء خُطاه الى أجله» .. أو قوله : « من يعط باليد القصيرة يعط باليد الطويلة » .. أو قوله : « المرء مخبوء تحت لسانه » أو قوله : « الحلم عشيرة » . . أو قوله : « من لان عُوده كَثُفت أغصانه » أو قوله : « كل وعاء يضيق بما جُعل فيه الا وعاء العلم فانه يتسع » الى أشباه هذه التعبيرات الحسان التي تحار فيها أي مزاياها أفضل وأقوم : صدق المعنى ، او بلاغة الأداء ، او جودة الصناعة . .

وبعض اقواله ينضح بدلائل « الشخصية » التي تلازم صاحب الفن الأصيل ، فتلبس معانيه لباساً من خوالج نفسه وأحداث زمانه ، كما قال « صواب الرأي بالدول . يقبل باقبالها ويذهب بذهابها » او كما قال : « ما اكثر العبر واقل الاعتبار » . . او كما قال : « شاركوا الذي اقبل

عليه الرزق فانه اخلق للغنى واجدر باقبال الحظ عليه » . . او كما قال: اذا هبتَ أمراً فَقَعْ فيه ، فان شدة توقيه اعظم مما تخاف منه » . . كما قال : « لا يقيم امر الله سبحانه إلا من لا يصانع ولا يضارع ولا يتبع المطامع » . .

وله عدا هذه الحكم التي تلونت بالوان نفسه أو ألوان زمانه ، حكم كثيرة تصدر من كل قائل يقدر عليها ، وتنفذ الى كل سامع يفطن لها كقوله : « كل معدود منقض وكل متوقَّع آت» أو قوله :«اذا كثرت القدرة قلت الشهوة » أو : « أفضل الأعمال ما اكرهت نفسك عليه » .. أو قوله : « من نصب نفسه للناس إماماً ، فليبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره .. وليكن تاديبه بسيرته قبل تاديبه بلسانه، ومعلم نفسه ومؤدبها أحق بالاجلال من معلم الناس ومؤدبهم» أو قوله : « الفقيه كل الفقيه من لم يُقنط الناس من رحمة الله ولم يُوئسهم من روح الله، ولم يؤمنهم من مكر الله » .. أو قوله : « قيمة كل امرىء ما يحسنه » او قوله : « العاقل هو الذي يضع الشيء مواضعه » أو قوله : « الصبر صبران : صبر على ما تكره ، وصبر على ما تحب » او قوله: « من مَلَكَ استأثر» او قوله: « الناس اعداء ما جهلوا » . او قوله : « القرابة الى المودة احوج من المودة الى القرابة » ..

وله في المواقف المرتجلة كلمات هي اشبه الكلمات بأسلوب الحكمة السائرة .. فلما خرج وحده لبعض المهام التي تردد فيها أنصاره ، قالوا له

يشيرون الى أعدائه : « يا أمير المؤمنين نحن نكفيكهم » فقال : « مـــا تكفونني أنفسكم فكيف تكفونني غيركم ؟ ان كانت الرعايا قبلي لتشكو حيف رعاتها ، وانني اليوم لأشكو حيف رعيتي ، كأنني المقود وهم القادة ، أو الموزوع وهم الوزعة » .

ورثى محمداً بن أبي بكر حين بلغه مقتله على أيدي اصحاب معاوية فقال : « ان حزننا عليه قدر سرورهم به ، الا انهم نقصوا بغيضاً ونقصنا حبيباً » . .

فكل نمط من انماط كلامه ، شاهد له بالملكة الموهوبة في قدرة الوعي وقدرة التعبير . . فهو ولا شك من ابناء آدم الذين عُلّموا الأسماء وأوتوا الحكمة ، وفصل الخطاب .

وقد اخطأ « موير » Moyer المؤرخ الانجليزي حين قال ان علياً حكيم كسليمان ، وهو مثله حكمته لغيره .. يعني أنه ينصح الناس ولا ينتفع بالنصيحة، فان «موير » أحجى أن يفرّق، بين عمل الانسان بنصحه وبين انتفاعه بنصحه . ولا شك أن علياً كان من العاملين بما يقولون ومن المنتصحين بما ينصح به الناس. أما أنه ينتفع بحكمته ، فالطبيب لا يقدح في علمه أنه قد أعياه علاج نفسه بطبه .. فقد يكون الاخفاق من استعصاء الداء لا من صحة الدواء .

***

ولا يفوتنا ان بعض هذه النصائح ، قد نُسِب الى قالة من الأوائل غير

الامام رضي الله عنه ،وهذا يستطرد بنا مرة أخرى الى الصحيح والمنحول من كلام الامام الذي جمعه الشريف الرضي في « نهج البلاغة » وفرغ من جَمْعِهِ بعد مقتله بزهاء اربعة قرون ، وهو بحث يخرج بنا من موضوع هذا الكتاب الى دراسة أدبية ليست من أغراضنا الخاصة في التعريف بعبقرية الامام .. فحسبنا أن اسلوب الامام معروف في بعض ما ثبت له من رسائله وخطبه ، وان طابع هذا الأسلوب شائع في الكتاب لا تقدح فيه كلمة ظاهرة التلفيق هنا أو كلمة ظاهرة الاقحام هناك ، أو كلمات يقع فيها الالتباس لاختلاف الصناعة أو اختلاف التفكير . فنحن لا نخطيء أن نرى في هذه الخطب والرسائل والأمثال وحدة تتصل حيناً ، وتنقطع حيناً ، كالوحدة التي نراها بغير انقطاع في كتب الجاحظ وابن المقفع وعبد الحميد .. وهذه الوحدة وحدها مغنية لنا في تبيان ثقافة الإمام ، أو تذوق أسلوبه الذي لا تخطيء فيه مرة جزالة البادية وصقل الحاضرة وحسن البداهة وامتزاج الصناعة بالطبع الذي لا تكلف فيه ..

ولا يتم القول في ثقافة الإمام عليّ رضي الله عنه ، ما لم نتممه بالقول في نصيبه من الثقافة العسكرية أو فن الحرب ، الذي هو مضماره الأول ومناط شهرته التي تبرز فيها صفة الشجاعة قبل كل صفة ، وكفاءة المناضل قبل كل كفاءة ..

فجملة ما يقال في هذا الصدد ، أن فن الامام العسكري هو فن البطل

المغوار الذي يناضل الأفراد وينفع الجيش الذي هو فيه بقدوة الشجاعة واذكاء الحماسة وتعزيز الثقة بين صفوفه ، وانه يعرف كيف يكون الهجوم حيث يجب الهجوم ، و كيف يحتال على عدوه بما يخلع قلبه ويفت في عضده .. ومن حِيَلِهِ المشهورة في توهين عزم عدوه ، انه أمر بعقر الجمل في الوقعة المعروفة باسمه، لأنه كان عَلَمَ القوم الذين كانوا يلتفون به ويثبتون بثبوته ..

وهكذا كله فن البطل المغوار الذي يفرق العسكريون بينه وبين خطط القيادة وفنون التعبئة وتحريك الجيوش ..

ولم يرد لنا من أنباء الامام في هذا الباب ما نحكم به على قيادته العسكرية بهذا الاعتبار ..

نعم .. انه كان يقسم جيشه الى ميمنة وميسرة وقلب وطليعة ومؤخرة ، وأشباه ذلك من التقسيمات التي جرى عليها في وقعة صفين على التخصيص ..

وكانت له وصاياه المحفوظة في تسيير الجيوش وتاديب الجند ومعاملتهم لسكان البلاد ، ومنها قوله : « اذا نزلتم بعدو أو نزل بكم ، فليكن معسكركم من قبل الاشراف وسفاح الجبال ، أو اثناء الأنهار، كيما يكون لكم رداء ودونكم ردا ، ولتكن مقاتلتكم من وجه واحد أو اثنين، واجعلوا لكم رقباء في صياصي الجبال ومناكب الهضاب، لئلا ياتيكم العدو من مكان مخافة أو أمن ، واعلموا ان مقدمة القوم عيونهم ، وعيون المقدمة

طلائعهم ، وإياكم والتفرق فاذا نزلتم فانزلوا جميعاً واذا ارتحلتم فارتحلوا جميعاً ، واذا غشيكم الليل فاجعلوا الرماح كفة ـ أي محيطة بكم ـ ولا تذوقوا النوم إلا غراراً أو مضمضة » ..

ومنها قوله: « ولا تسر أول الليل، فان الله جعله سكناً وقدره مقاماً لا ظعناً » ومنها قوله للولاة : « اني سيرت جنوداً هي مارة بكم ان شاء الله ، وقد أوصيتهم بما يجب لله عليهم من كف الأذى وصرف الشذى ، وأنا أبرأ اليكم والى ذمتكم من معرة الجيش الا من جوعة المضطر لا يجد عنها مذهباً الى شعبه ، فنكلوا من تناول منهم شيئاً ظلماً عن ظلمهم ، وكفوا أيدي سفهائكم عن مضارتهم والتعرض لهم .. »

وهذه وما هو من قبيلها ،مناهج موروثة أو أدب هو أقرب الى نظام الادارة منه الى خطط التعبئة وقيادة الميدان ..

وعلى كونه قد اتبع هذه التقسيمات والمناهج في وقعة صفين ، لم تكن الوقعة كلها الا مناوشات هجوم ودفاع بين طوائف متفرقة في أوقات متباعدة .. كأنها ضرب آخر من ضروب فن الحرب على طريقة الفارس المناضل والبطل المفرد في موقف المبارزة أو في غمار الصفوف .

* * *

وخلاصة ذلك كله ، ان ثقافة الامام هي ثقافة العلم المفرد والقمة العالية بين الجماهير في كل مقام ..

وانها هي ثقافة الفارس المجاهد في سبيل الله ، يداول بين القلم

والسيف ، ويتشابه في الجهاد بأسه وتقواه .. لأنه بالبأس زاهد في الدنيا مقبل على الله ، وبالتقوى زاهد في الدنيا مقبل على الله ..

فهو فارس يتلاقى في الشجاعة دينه ودنيـاه، وهو عالم يتلاقى في الدين والدنيا بحثه ونجواه ..



١٠

في بيته

خلاصة رأي الامام في المرأة أنها « شر كلها .. وشر ما فيها انه لا بد منها » ..

كان يرى لها فضائل خاصة تليق بها غير الفضائل التي تليق بالرجل وتحمد منه .. « فخيار خصال النساء شرار خصال الرجال .. الزهو ، والجبن ، والبخل .. فاذا كانت المرأة مزهوة لم تُمكِّن من نفسها ، واذا كانت بخيلة حفظت مالها ومال بعلها ، واذا كانت جبانة فَرِقَتْ من كل شيء يعرض لها » ..

والإمام صائر الى رأيه هذا في المرأة من كلتا طريقيه ، وهما طريق الحكيم الذي ينظر اليها على سنّة الحكمة القديمة ، وطريق العابد الذي ينظر إليها على سنّة العبادة في جميع العصور .. ولكنه لا رأى الحكيم ولا حس العابد قد حجبه قط عن فطرته الغالبة عليه ، وهي فطرة الفارس المطبوع في آداب الفروسية ، ومنها التلطف بالمرأة والصفح عن عدوانها .. فما انتقم قط من امرأة لأنها أساءت إليه ، ولا غفل قط عن

الوصية بها في موطن يستدعي هـذه الوصية . ومن أمثلة وصاياه في هـذا المعنى خطبته بين جنوده قبل لقاء العدو بصفّين، حيث يقول :

« لا تهيجوا النساء بأذى وان شتمن أعراضكم وسببن أمراءكم، فانهن ضعيفات القوى والأنفس والعقول ، ان كنا لنُؤمر بالكفّ عنهن وانهن لمشركات ، وان كان الرجـل ليتناول المرأة في الجاهلية بالفهر – أي الحجر – أو الهراوة فيعيّر بها وعقبه من بعده .. »

وقد كانت ميوله نحو المرأة قوية ، كما يظهر من غير حادث واحد .. ومن ذاك صَبيَّة السبي التي استولى عليها وبنى بها لساعتها ، وجعلهـا قسمه من الخمس قبل تقسيمه . . فرأى بعض أصحابه في ذلك ما شكوه الى النبي عليه السلام من أجله ، وربما كان هـذا سبب تحذيره منها في الغزوات خيفة على الجيش من شواغلها ، فكان يقول لسراياه وجيوشه اذا شيَّعَها : « اعزبوا عن النساء ما استطعتم » ويوصي في أمثال هـذه المواطن باجتنابها . .

الا أنه كان يرى على ما يظهر ان امرأة تغني عن سائر النساء ، فلم يُعرف له هوى لامرأة خاصة من نسائه غير الهوى الذي اختص به السيدة فاطمة رضي الله عنها كرامة لمنزلتها عنده ومنزلتها عند أبيها ، وهو غير الهوى الذي تبعثه المرأة بمغريات جنسها .

كان جالساً في أصحابه ، فمرت بهم امرأة جميلة ، فرماهـا القوم بأبصـارهم .. فقال رضي الله عنه : « أن أبصار هذه الفحول طوامح،

وان ذلك سبب هياجها .. فاذا نظر أحدكم الى امرأة تعجبه قليلاً مس أهله ، فانما هي امرأة كامرأة » .

وعلى الجملة ، يمكن أن يقال أن آراء الامام في المرأة هي خلاصة الحكمة القديمة كلها في شأن النساء .

فهن شر لا بد منه باتفاق آراء الأقدمين ، سواء منهم حكماء الهند واليونان أو الحكماء الذين نظروا الى المرأة بعين الدين من أبناء بني اسرائيل وآباء الكنيسة المسيحية وأئمة الاسلام

لأنهم كانوا جميعاً يمزجونها بالشهوات التي تثيرها عامدة أو غير عامدة ، ويلقون عليها تبعة الشرور التي تنجم عنها بمكيدتها أو على الرغم منها، ولم تتغير هذه النظرة بعض التغير الا في الأزمنة الحديثة التي نظرت في استقلال التبعات على أساس « الحرية الشخصية » .. فحاسبت المرأة بما تجنيه ، وأوشكت أن تبالغ في تبرئتها من جناياتها .

فمن السهو عن الحقيقة ، أن تُتخذ آراء الأقدمين دليلاً على نصيبهم من الغبطة او السكينة في حياتهم البيتية .. لأننا خلقاء أن نحسبهم جميعاً من الأشقياء المعذبين في بيوتهم ، وهو ما تاباه البداهة وتاباه أنباء التاريخ عن كثير من الأزواج والزوجات النابهات .

وليس من اللازم في حياة الامام خاصة، أن يستمد آراءه في المرأة من حياته البيتية .. فقد كانت تجاربه في الحياة العامة مدداً لا ينفذ لهذه الآراء التي شاعت بين الأقدمين حتى أوشكت ألا تحتاج الى تجربة

مكررة ، وشاءت المقادير أن تنقضي حياة الامام عليّ وللمرأة يـــد في القضاء عليها ، فكانت حياته الغالية مهراً لقطام التي قال فيها ابن أبي مياس المرادي :

ولم أر مهراً ساقه ذو سماحة   كمهر قطام من فصيح وأعجم
ثلاثة آلاف وعبد وقينــــة   وضرب عليٍّ بالحسام المسمم
فلا مهر أغلى من عليّ وإن غلا   ولا فتك إلادون فتك ابن ملجم

والذي يجزم به مؤرخ الامام ان حياته البيتية خلت من شكاة لم يالفها الأزواج في زمانه ، وانها كانت على أحسن ما وصفت به الحياة الزوجية بين أمثاله ..

عاش مع فاطمة رضي الله عنها ، لا يقرن بها زوجة أخرى .. حتى ماتت بعد موت النبي عليه السلام بستة أشهر .. وهي رعاية لهـا ورعاية لمقام أبيها لا شك فيها ، فقد كان النبي عليه السلام كما جاء في الأثر يغـــار لبناته غيرة شديدة ، وروي عنه انــه قال وهو على المنبر مرة : « ان بني هشام ابن المغيرة استأذنوني في أن ينكحوا ابنتهم علياً بن أبي طالب ، فلا آذن ، ثم لا آذن ، ثم لا آذن ، إلا ان يريد عليّ بن أبي طالب أن يطلق ابنتي وينكح ابنتهم .. فانها بضعة مني يريبني ما رابها ويؤذيني مـــا آذاهـا » .

وربما كان من وفائه لها غضبه لغضبها ، فأحجم عن مبايعة أبي بكـر الى ما بعد وفاتها على بعض الروايات ، وهجره كما هجرته مدة حياتها.

وقد ولدت له أشهر أبنـائه وبناته : الحسن ، والحسين ، ومحسن ، وأم كلثوم ، وزينب ، وماتت ولم تبلغ الثلاثين .

وتزوج بعدها تسع نساء رزق منهن أبناء وبنات يختلف في عـــدهم المؤرخون ، ويؤخذ من احصائهم في « الرياض النضرة » للمحب الطبري انه رضي الله عنه وافر الحظ من الذرية ، بقي منهم بعده كثيرون .

وكان على ما يفهم من خلائقـــه ، ومن سيرته وأخباره، أبا سمحاً يستريح الأبناء الى عطفه ، ويجترئون على مساجلته الرأي في أخطر مـا ينوبه من الأحداث الجسام ..

لما توجه طلحة والزبير نحو العراق، ومعهما السيدة عائشة رضي الله عنها ، جاءه ابنه الحسن بعـــد صلاة الصبح فقال له : « قد أمرتك فعصيتني ، فَتُقْتَلُ غداً بمعصية لا ناصر لك فيها » فسأله : « وما الذي أمرتني فعصيتك ؟ » قال : « أمرتك يوم أحيط بعثمان رضي الله عنه أن تخرج من المدينة فَيُقْتَل ولستَ بها ، ثم أمرتك يوم قتل ألا تبايـع حتى تأتيك وفود العرب وبيعة أهل كل مصر .. فانهم لن يقطعوا أمراً دونك فابيت .. ثم أمرتك حين فعل هذان الرجلان ما فعلا أن تجلس في بيتك حتى يصطلحا .. فان كان الفساد كان على يدي غـــيرك ، فعصيتني في ذلك كله ! » ..

فلم يأنف أن يساجله الرأي ليقنعه، وجعل يقول له : « أي بنيّ !.. أما قولك لو خرجت من المدينة حين أحيط بعثمان فوالله لقد أحيط بنا

كما أحيط به ، وأما قولك لا تبايع حتى تاتي بيعة الأمصار فان الأمر أمر أهل المدينة وكرهنا أن يضيع هذا الأمر ، وأما قولك حين خرج طلحة والزبير فان ذلك كان وهناً على أهل الاسلام .. وأما قولك : اجلس في بيتك فكيف لي بما قد لزمني ؟.. من تريدني ؟.. أتريد أن أكون مثل الضبع التي يحاط بها و يقال دباب دباب . . ليست هنا حتى يحل عرقوباها ثم تخرج .. واذا لم أنظر فيما لزمني من الأمر ويعنيني ، فمن ينظر فيه ؟ فكف عنك أي بني » ..

هذه معاملة « أخوة » تستغرب في الأجيال الماضية التي كان للأبوة فيها على البنين سيادة تقرب من سيادة المولى على الرقيق ، ولا ينقضها انه لطم الحسن يوماً لأنه ظن به تقصيراً في الدفاع عن عثمان . . فتلك سورة الغضب في موقف من أندر المواقف التي لا يقاس عليها في سائر الأحوال ..

وكان رضي الله عنه ، يزهيه أن يحيط به أبناؤه في محافل الروع ومشاهد الزخرف .. فيخرج اليها وهم حافون به عن يمينه وشماله ، ومنهم من يحمل اللواء بين يديه ، وذلك زهو الشجاع الفخور بأشباله الشجعان ..

واشتهر بالعطف على صغارهم ، كما اشتهر بمودة كبارهم .. فكان أحب شيء إليه أن يداعبهم او يرى من يداعبونهم ، وكانت له طفلة ذكية ولدتها له زوجة من بني كلب يخرج بها الى المسجد ويسرّه ان

يسألها اصحابه : مَنْ أخوالك ؟ . فتجيب : « وه .. وه » محاكاة لعواء الكلاب ..

وكان يقول : « ان للوالد على الولد حقـــاً ، وان للولد على الوالد حقاً .. فحق الوالد على الولد ان يطيعه في كل شيء الا في معصيــة الله سبحانه ، وحق الولد على الوالد أن يحسن اسمه ويحسن ادبه ويعلمـه القرآن » ..

ومن احسان التسمية ، انه هم بتسمية ابنه حرباً لأنه يرشحه للجهاد وهو أشرف صناعاته ، لولا ان رسول الله سماه الحسن ، وهو أحسن .. فجرى على هذا الاختيار في تسمية أخويه الحسين والمحسن . واتم حق أبنائه في احسان أسمائهم فاختار لهم أسمـــاء النبي واسلافه من الخلفاء : أبي بكر ، وعمر ، وعثمان .

أما معيشته في بيته بين زوجاته وأبنائه ، فمعيشة الزهد والكفاف.. وأوجز ما يقال فيها انه كان يتفق له أن يطحن لنفسه ، وأن يا كل الخبز اليابس الذي يكسره على ركبته ، وان يلبس الرداء الذي يرعد فيـــه ، وان أحداً من رعاياه لم يمت عن نصيب اقل من النصيب الذي مات عنه وهو خليفة المسلمين . . وكان الخليفة يوم كانت الخلافـــة تناقض مُلك الدنيا . . فكان بيته نقيض القصر الذي تعرض الدنيا المملوكة بين أركانه وزواياه . .

صُورَةٌ مُجْمَلَة

من كلمات الامام التي لم يقلها أحد غيره كلمته في خطاب الدنيا حيث يقول : « يا دنيا غُرِّي غيري .. غرّي غيري ! »

وانها لأكثر من كلمة ، وأكثر من دعاء ..

انها لسان قدر ، وعنوان حياة ..

فقد خلق الامام، وفي كل خليقة من خلائقه الكبار اجتراء على الدنيا، على ضرب من ضروب الاجتراء .

خلق شجاعاً بالغاً في الشجاعة ، وزاهداً عظيم الزهد ، ودارساً محباً للحقيقة الدينية يتحرّاها حيث اهتدى اليها ..

والشجاع جريء على الدنيا لأنه لا يبالي الحياة ..

والزاهد جريء على الدنيا لأنه لا يبالي النعيم ..

وطالب الحقيقة جريء على الدنيا لأنـــها طريق عنده الى غاية من ورائها ..

فأي مصير لهذا الرجل غير الشهادة في زمن لم يعرف بطارىء من الطواريء ، كما عرف بالاقبال على الدنيا ؟ ..

صام الناس قبله عن الدنيا ، ثم أقبلوا على الدنيا العريضة بجذافيرها . .

هدأت حماسة الدعوة النبوية ، وثابت الطبائع الى مالوفها الذي اشرجت عليه ، وتدفقت الأموال من الأمصار المفتوحة على نحو لم تعهده الجزيرة العربية قط في تاريخها القديم ..

وأقبل الناس على الدنيا ، بل هرولوا الى الدنيا ..

واذا بخليفة جرىء عليها زاهد فيها ، يقف لهم في طريقها ويصدهم عنها ..

يصدّ ماذا ؟ ..

يصدّ الطوفان، وهو مندفع من وراء السدود ..

يصدّ الطبيعة الانسانية ، وهي منطلقة من عقال التقوى ..

يصدّ ما لا سبيل الى صده بحال ..

فهو مستشهد لا محالة ولو مات [illegible] سريره .. فان الانسان قد يعيش عيشة الشهداء ، ولا يلزم بعد ذلك أن يموت ميتة الشهداء ..

وقد لزمته آية الشهادة في كل قسمة كتبت له ، وكل حركة سعى اليها أو سعت اليه ..

فمن آيات الشهادة أن يساق الى الخلافة ، ولا حيلة له في اجتنابها ..

ومن آيات الشهادة أن يساق اليها في ساعة الفصل بينها وبين المُلْك ، وتقوم الحوائل كلها بينه وبينها قبل الأوان ..

ومن آيات الشهادة انه يساق اليها ، ولا حيلة له في تحقيق اغراضها ولا في الخروج من مآزقها ..

ومن آيات الشهادة أن يبتلى بانصاره أشد من بليته باعدائه ، ولا حيلة في تبديل أولئك الأنصار ..

ومن آيات الشهادة ألا تغرّه الدنيا ، وقد غرّت حوله كل انسان ..

فهو شهيد ، شهيد ، شهيد ..

خرج الى الدنيا والشهادة مكتوبة على جبينه ، وخرج منها والشهادة مكتوبة على ذلك الجبين بضربة حسام ..

وصورته الجملة لا تشق على مصوّر ولا على متفرس ، لأنها صورة المجاهد في سبيل الله بيده وقلبه وعقله ، أو صورة الشهيد ..

وكل امتحان لقدرته أو لعمل من أعماله ، ينبغي أن ينعزل عن محنة القَدَرِ التي لا يغلبها غالب ..

وقد كان له رأي عالم ، وفطنة حكيم ، ومشورة مُدَبّر .. ولكننا اذا قلنا انه أخفق في العمل لأنه لم يغلب القدر ، فذلك تكليف بما لا يطاق .

وانما نقول انه أخفق في العمل ونسك ، ولعله لو تولى الخلافة قبلها أو تولى الملك بعدها لما ظهر منه ذلك الاخفاق..

***

وحق لا شك فيه انه أخفق حيث يُشَرّفه اخفاقه ، وحيث يخفق الآخرون لو نصبتهم الأقدار في مثل مكانه ..

ومات وقد حل مشكلة الخلافة بلسانه ، وهو الى اليوم موضع الخلاف عليها وعليه بين اصحاب المذاهب وأصحاب الأقوال في التاريخ ..

فقد كان يودّ لو أن رسول الله استخلفه من بعده ، ولكنه لم يطلب اليه ذلك .. ولا رأى من الحكمة أن يطلبه اليه . قال ابن عباس ورسول الله في مرض الوفاة : « اذهب الى رسول الله ، فسله فيمن يكون هذا الأمر.. فان كان فينا علمنا ذلك، وان كان في غيرنا أمر به فأوصى بنا».. قال : « والله لئن سألناها رسول الله فمنعناها لا يعطيناها الناس أبداً .. والله لا أسألها رسول الله ابداً »..

وآمن الامام بحكمة الرسول ايمان محبة وتصديق ، ولكنه لم يفارق الدنيا حتى كان قد آمن بها ايمان تعليم وتطبيق . فلما سألوه : « أنبايع الحسن ؟ » قال : « لا آمركم ولا أنهاكم » فانصف الذين سبقوه ولم يفرضوا على الناس استخلافه ، لأنهم رأوا في موقفه منها مثل ما رأوه

في موقف الحسن ابنه، على حكم سواء . .

***

أي ختام أشبه بهذا الشهيد المنصف من هذا الختام . .

لقد وُلد كما علمنا في الكعبة ، وضَرب كما علمنا في المسجد .. فأية بداية ونهـاية أشبه بالحيـــاة التي بينهما من تلك البداية وتلك النهاية !..

الفهـــرست